إجمال البيان

في مباحث من علوم القرآن

بقلم

أ. د. عبد الله أحمد أحميد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة المفتوحة - قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الفاتح - كلية الآداب - قسم اللغة العربية



الطبعة الثانية مزيدة ومحققة

1374و.ر - 2006م

القسمان

الأول و الثاني

إجمال البيان

في مباحث من علوم القرآن

بقلم: -
أ. د. عبد الله أحمد حميد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بالجامعة المفتوحة – قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الفاتح - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

الطبعة الثانية مزيدة ومحققة

رقم الإيداع: 7197 / 2006 / دار الكتب الوطنية بنغازي
ردمك 4 – 035 – 33 – 9959 ISBN
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية
بنغازي ليبيا
هاتف: 9090509 – 9096379 – 9097074
بريد مصور: 9097073
البريد الإليكتروني: nat_lib_libya@hotmail.com

مراجعة لغوية: أ. محمد التركي التاجوري

الإهداء

إلى روح والدي ووالدتي اللذين وهباني إلى طلب العلم

وإلى أبنائي وأختهم ووالدتهم

أهدي هذا الجهد المتواضع

مذكراً بالحديث الشريف الصحيح

الذي رواه الإمام مسلم بسنده، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه:

"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، إلا من صدقة جارية،

أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" [1]

وطالباً من الأولاد الدعاء بالرحمة والغفران من الله تعالى.

(1) جـ ((ص 85)) كتاب الوصية باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم هدى للناس ورحمة للمؤمنين، ومصدقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيمناً عليها إلى أفضل خلقه وخاتم أنبيائه ورسله سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه ربه بالدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، اللهم صلِّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فإن من أهم الواجبات على المسلمين عموماً وعلى علمائهم خصوصاً هو الاهتمام بكتابهم المجيد حتى تتحقق به الهداية ويتم به الاسترشاد، ذلكم الكتاب القيم الحكيم الذي بهر العرب والناس جميعاً بما يشعّ من روح العدالة والتسامح، وما يمتاز به من بساطة في المنطق وروعة في البيان، وما يرشد إليه من هدايات ومعارف تصلح بها حياة الناس في دنياهم ويسعدون بها في أُخراهم.

استقام به أمر الرعيل الأول من الأمة الإسلامية وأرشدهم إلى النبع الصافي من الإيمان العميق والعمل الصالح السديد، وتوحدت به كلمة العرب واجتمع شملهم تحت رايته، وكان لهم مدرسة تخرَّج منها رجال أقوياء بإيمانهم، أعزاء في أوطانهم، أناروا السبيل أمام الشعوب وأرسوا دعائم حضارة خالدة، عمَّت البشرية قاطبة، وذلك لأن هذا الكتاب جاء متضمناً للعقائد السليمة والعظات البالغة والتوجيهات السامية والتشريعات

الحكيمة والآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة، قال الله تعالى في محكم الآيات: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[1]. وقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

فهذه الآيات ومثيلاتها تدل في وضوح على أن القرآن أنزل ليكون هادياً للناس ومرشداً لهم إلى طريق الخير والسعادة في الدارين، هذا بالإضافة إلى كونه معجزة خالدة ناطقة بصدق من أنزل عليه في كل ما يخبر به عن ربه عز وجل، وليجعله المؤمنون قربة يتقربون بتلاوته وتدبره والعمل به إلى خالقهم سبحانه وتعالى.

هذا، وإن مما لا شك فيه أن هذه المقاصد التي ذكرتها وغير ها لا تتأتى ولا يمكن الحصول عليها كاملة بحيث تحقق السعادة للأفراد والجماعات بمجرد النظر في الكتاب العزيز، بل لا بد من استعمال الفكر والعقل ابتغاء التفسير والشرح والإيضاح لمعاني الخطاب الإلهي الكريم، ومن أهم مقومات التفسير السديد هي اعتماده على أسس متينة وقواعد ثابتة من علوم القرآن المختلفة حتى يكون أقرب إلى الصواب وأحرى بالقبول والرضى، وذلك لأن علوم القرآن عبارة عن مباحث هامة ومعلومات قيمة تتعلق بالقرآن الكريم من حيث الظروف والملابسات التي واكبت نزوله، ومن حيث العناية التامة التي أحاطه بها المسلمون الأولون من جمعه وحفظه وتجويده وتفسيره، وبيان أوجه إعجازه وإتقان قراءاته، وكيفية نزوله وتنـــزلاته، ودفع الشبه التي أثيرت حوله، وما إلى ذلك.

هذا، واعتقد كما اعتقد الكثيرون غيري أن ما أصاب المسلمين من تأخر وتخلف ما هو إلا بسبب بعدهم عن كتاب ربهم وزهدهم في علومه وهداياته المتنوعة وإرشاداته القيمة في جميع المجالات، ولن يرجع لهم مجدهم السالف وحضارتهم الغابرة إلا بالرجوع

1- الآية 9 من سورة الإسراء.

2- الآيتان 15-16 من سورة المائدة.

إليه والالتفاف حوله والعمل بتوجيهاته، وبالزحف متكاثفين على وجه الأرض لإعلاء كلمته.

وفي هذه الآونة، وفي عصرنا الحاضر، عصر الجماهير، الذي نعيد فيه بناء أمتنا من جديد على أسس متينة من العلوم النافعة والإيمان الصحيح بقيمنا ومقدساتنا، نرى أن الرجوع إلى القرآن هو أنجع دواء وأنفع علاج وأسهل وسيلة إلى تهذيب النفوس وإصلاحها وجذبها إلى طريق الحق والصواب.

وإسهاماً مني في هذا البناء، وشعوراً بالمسؤولية، وخدمة لكتاب الله تعالى، أقدم كتابي هذا للطبع بعنوان: ((**إجمال البيان في مباحث من علوم القرآن**)).

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً، بلسان عربي مبين.

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا ومولانا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين الذين آووه ونصروه واتبعوا النور المترل عليه، وعلى من تبعهم وسار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمـــا بعــــــد،،،،

فإن الله تعالى نزل القرآن على قلب نبيه ورسوله محمد صـــلى الله عليه وسلم فيه هدى ونور وبشرى للمؤمنين، وهو السراج المنير والحبل المتين فمن تمسك به هدى إلى الصراط المستقيم.

وهو الحجة البالغة والشريعة العادلة، دعى إلى تلاوته وتدبره ويسره للذكر ووعد بالفضل الكثير والخير الجزيل على تعلمه وتعليمه وتلاوته والعمل به، وهذه أمور لا تتأتى إلا بمعرفة قواعد ومسائل تتعلق به وضعها علماؤنا رحمهم الله تعالى لفهم القرآن وإدراك معانيه على الوجه الصحيح وكيفية التعامل معه في مختلف العلوم الإسلامية، وهو ما يسمى بعلوم القرآن، وفي كتابي هذا بيان مجمل لمعظمه آملاً أن تتحقق به الأهداف المطلوبة من دراسته وهي كما يلي:-

1- أن يتعرف المسلم من خلاله على توثيق النص القرآني وصحة نقله إلينا من غير تحريف ولا تبديل.

2- أن يلمّ المسلم بكثير من المصطلحات المتداولة مما يتصل بالقرآن الكريم فيساعد ذلك الإلمام على فهم القرآن والعمل به.

3- أن يشعر المسلم بحاجته إلى المعرفة القرآنية فيجتهد في تحصيلها ليعرف من خلالها القرآن ومعانيه ومقاصده.

4- أن يعتز المسلم بالقرآن ويجعله محوراً لحياته فيحكّمه فيها ويدرك أهمية القرآن في ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها.

5- أن يتبين المسلم من خلال علوم القرآن أن القرآن كله وحي إلهي معجز يمتاز بخصائصه الكثيرة عما سواه من الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام[1]، إلى غير ذلك من الأهداف والمقاصد مما يأتي إجماله في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

بداية فكرة تأليف هذا الإجمال:-

كل ما تم جمعه فيه هو في البداية محاضرات متعددة تم إلقاؤها بقسم أصول الدين بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية إحدى كليات جامعة قاريونس سابقاً وطبعت الجامعة القسم الأول منه سنة 1978ف، ثم أضفت إليه فيما بعد القسم الثاني وتم طبعهما معاً بالجامعة المفتوحة سنة 1996ف، والآن ولما قاربت نسخ هذه الطبعة على النفاذ قمت بعون الله تعالى وحسن توفيقه بتصحيح الكتاب بدقة وأضفت إليه بعض المباحث المهمة، وها أنا أقدمه إلى الطبعة الثانية، علماً بأن هذه الطبعة قد امتازت بدقة التصحيح وضبط الآيات القرآنية وتخريجها على رواية حفص بن سليمان عن عاصم الكوفي.

وبالأخـــذ بملاحظات بعض الزملاء الذين قاموا بتدريس مـــادة علوم القرآن من كـــتابي (**إجمال البيان**).

1- ينظر كتاب علوم القرآن أساسيات ومبادئ، د. أحمد محمد العليمي، ص11.

وأخص بالذكر من بينهم الأخ الدكتور عبد الحميد مختار الضبع الذي أبدى ملاحظات عديدة اعتبرتها بمثابة المراجعة العلمية للكتاب فله مني الشكر الجزيل راجياً من الله له السداد والتوفيق إلى كل خير، وأيضاً تمتاز هذه الطبعة بزيادة ثلاثة مباحث تهم طالب علوم القرآن، وهي: الوحي، ونزول القرآن على سبعة أحرف، وموجز للقراءات والقراء، وبهذه الزيادة في القسم الأول يحصل التكافؤ والتماثل في عدد المباحث بين قسمي الكتاب.

وبوضع أسئلة تطبيقية في نهاية كل مبحث ليستعين بها الطلاب على الفهم والتحصيل وبخاصة بالنسبة لطلاب الجامعة المفتوحة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من حملة القرآن ومن الداعين إلى هدايته، وأن يرحمنا به، وأن يجعله لنا هدى ونوراً ورحمة وأن يذكرنا منه ما نسينا، ويعلمنا منه ما جهلنا، ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أ. د. عبد الله أحميد

طرابلس الجمعة 10/ شوال

الموافق 11/11/ 1373 ور- 2005ف

القسم الأول

مقدمة

علوم القرآن

قبل الدخول في مباحث هذا العلم، ينبغي أن يسبق بمقدمة تشتمل على نقاط مهمة تعتبر مدخلاً له لأنها تعطي القارئ فكرة مبسطة عنه، وهي أربع:-

1- التعريف بعلوم القرآن كفنٍّ مدوَّنٍ وعلمٍ مستقلٍّ.

2- تحديد ميدان دراسته وبيان الموضوعات التي يتناولها.

3- بيان مدى حاجة الناس إليه وإبراز الهدف من دراسته.

4- أشهر المؤلفات فيه منذ نشأته وتطوره في العصور المختلفة حتى وقتنا الحاضر، وهذه النقاط هي بعض وأهم ما يُسمّى بمبادئ العلم التي يذكرها المؤلفون في مقدمات العلوم ويقولون: إنه يتوقف عليها الشروع في المقصود، وفيما يلي تفصيلها:-

أولاً:- التعريف بهذا العلم وبيان معناه

هذا اللفظ – علوم القرآن – مركب إضافي يحتوي على جزءين مضاف ومضاف إليه، وقبل توضيح معناه باعتباره اسماً موضوعاً لهذا العلم، أودّ أن أذكر نبذة توضح كلاً من جزءي هذا المركب، وهما علوم وقرآن. أما العلوم، فهي جمع علم: يطلق في اللغة على ما يرادف الفهم والمعرفة، وفي الاصطلاح: هو قوة في الذهن بها يقتدر على اكتساب المعلومات التصورية والتصديقية[1]. وقد جرت عادة الكاتبين في شتى العلوم أن يذكروا أسماء علومهم بلفظ الإفراد فيقولون مثلاً: علم الفقه وعلم الفرائض وعلم الأصول وعلم النحو وغير ذلك، وإنما جاء التعبير في هذا العلم بلفظ الجمع للدلالة على أنه خلاصة لعلوم

1- إدراك معاني المفردات يسمى تصوراً وإدراك النسب الخبرية يسمى تصديقاً مثال الأول: محمد، مكتب، ومثال الثاني: محمد رسول الله، العلم نافع.

كثيرة مختلفة كلها لها تعلّق بالقرآن الكريم وتخدمه من ناحية معينة، من هذه العلوم علم الرسم العثماني وعلم القراءات وعلم إعــجاز القرآن وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير وعلم إعراب القرآن وغريبه، وغــير ذلك.

وبالاختصار فإن جميع علوم اللغة العربية والدينية لها تعلّق بالقرآن الكريم، وتخدمه من ناحية واحدة أو من عدة نواح، وهناك من العلماء مثل الإمام جلال الدين السيوطي مَن توسَّع في عد علوم القرآن حتى أوصلها إلى 77450 علماً[1] على عدد كلمات القرآن مضروب في أربعة: الظهر والبطن والحد والمطلع[2]؛ وعد منها أيضاً علوماً ليس لها تعلق بالقرآن ولا تخدمه مثل علم الطب والهندسة والهيئة ونحوها. وغاية ما في الأمر أن القرآن حث على تعلمها والانتفاع بها، ولكن نحن لسنا بصدد بيان هذا ولا ذاك، والذي يعنينا إنما هو الكلام عن علوم القرآن المدونة والمجعولة فناً مدوناً وعلماً مستقلاً فلا تدخل حينئذ كلمات القرآن من حيث تلك الاعتبارات ولا تدخل تلك العلوم التي عدّد السيوطي بعضها.

وأما لفظ القرآن، فهو اسم علم على كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو أشهر أسمائه، وله أسماء أخرى كثيرة أوصلها البعض إلى خمس وخمسين اسماً اشتهر منها خمسة وهي: القرآن والفرقان والذكر والتنزيل والكتاب[3]. أما القرآن في اللغة فقد اختلف

---

1 - الإتقان، جـ2، ص128، والعدد الصحيح بعد ضرب عدد كلمات القرآن في أربعة هو، 309756.

2- قال الألوسي في روح المعاني: ((الظهر ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، والبطن أي الباطن ما تضمنته الآيات من أسرار أطلع الله أرباب الحقائق عليها، والمطلع هو ما يتوصل به إلى معرفة الغوامض، والحد المنتهي فيما أراده الله من معناه))، انتهى ج 1، ص 10.

3- سمي بالفرقان لقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾، وبالذكر لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وبالتنزيل لقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبالكتاب لقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ .

فيه العلماء على قولين: فقيل هو اسم علم جامد غير مشتق وغير مهموز وبه قرأ ابن كثير والإمام الشافعي، وقيل بل هو مشتق، ثم اختلف أصحاب هذا القول في تعيين المشتق منه على أقوال عديدة منها:

1- جاء عن اللحياني[1] أنه مصدر مهموز من قرأ يقرأ على وزن فعلان كالرجحان والغفران سمي به المقروء من باب تسمية اسم المفعول بالمصدر كالخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[2].

2- وقيل هو مشتق من القرن من قولك قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، سمي به كتاب الله تعالى نظراً لاقتران سوره وآياته وحروفه بعضها ببعض، وممن ذهب إلى هذا القول الإمام الأشعري رحمه الله تعالى.

3- وقال الزجاج[3]: هو مشتق من القرء بمعنى الجمع أخذاً من قولهم قرأت الماء في الحوض إذا جمعته فيه، سمي به الكتاب الكريم لجمعه كل ما في الكتب السماوية السابقة من المعاني والشرائع والهدايات المختلفة أو لجمع سوره وآياته وحروفه بعضها إلى بعض، وعلى هذا القول فهو مهموز، ومن قرأه بدون همز فهو من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن الصحيح قبلها.

لمرجح من الأقوال:-

أرجح هذه الأقوال هو ما ذهب إليه اللحياني من أنه مصدر مشتق من القراءة ومهموز، رجّحه غير واحد من العلماء منهم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان، وغيره.

1 - اللحياني من علماء اللغة العربية، توفي سنة 220 هـ، وهو أبو الحسن علي بن حازم.

2 - أية 11 من سورة لقمان.

3 - الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن السرى.

تعريف القرآن في الاصطلاح:-

اختلفت أقوال العلماء في تحديد معنى القرآن الاصطلاحي إلى أقوال عديدة حسب تخصصات المعرفين، والمختار منها هو أنه:-

كلام الله تعالى[1] المنزل على سيدنا محمد ﷺ المعجز المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المكتوب في المصاحف، فقولنا كلام الله تعالى كالجنس في التعريف يشمل جميع الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل وغيرها إلى جانب القرآن الكريم والحديث القدسي، وقولنا المعجز كالفصل يخرج به جميع المذكورات ما عدا المعرف وذلك لعدم وصفها بالإعجاز، وإلى هذا الحد يكمل التعريف، ويكون جامعاً مانعاً، وما ذكر بعد قيد الإعجاز فهي أوصاف القرآن الكريم زادها العلماء في التعريف للشرح والإيضاح فقط، ولا دخل لها في التعريف ومعنى الإعجاز المذكور هو إلحاق العجز وعدم القدرة على الإتيان بمثله بالمعارضين الذين تحداهم القرآن وأخرسهم بأمثال قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

والقرآن الكريم يوصف بالإعجاز من نواحٍ كثيرة، من ناحية فصاحته وبلاغته وأسلوبه ونظمه وبيانه، وغير ذلك من كل ما هو وصف ذاتي له ولازم لكل آية من آياته[3]. هذا، وبعد أن عرفنا معنى كل من جزءي المركب الإضافي – علوم القرآن – يجدر بنا أن نعرف معناه ككل فنقول هو: عبارة عن مباحث ومسائل تتعلق بالقرآن

---

1 – المراد الكلام اللفظي لا النفسي الذي هو صفة من صفاته تعالى منزهة عن الحروف والأصوات والتقديم والتأخير، ونحو ذلك.

2 – آية 23 من سورة البقرة.

3 – سيأتي الكلام مفصلاً في البحث الخاص به إن شاء الله تعالى.

الكريم من ناحية نزوله وجمعه وترتيبه وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ودفع الشبه عنه، وما إلى ذلك.

ثانياً:- موضوع دراسته

يمكننا تحديد موضوع علوم القرآن من خلال فهمنا لتعريفه فنقول: موضوع علوم القرآن هو: القرآن الكريم من الحيثيات المتقدمة في التعريف، أي من حيث نزوله وجمعه وترتيبه إلى آخر التعريف السابق.

ثالثاً:- بيان الحاجة إليه

لا يشك أي مسلم ولا يتردد في أننا في حاجة ماسّة وملحّة إلى دراسة علوم القرآن حتى يتسنى لنا الحصول على ثقافة قرآنية عامة قيِّمة استعداداً للدفاع عن القرآن وعن الدين، وتوسلاً للخوض في تفسير كلام الله الحكيم الخبير، فيتمكن المكلف من معرفة الخطاب الإلهي فيعمل بمقتضاه ويصل إلى سعادة الدارين، وهي أمنية عزيزة وعظيمة يجب أن يسعى إليها المسلم العاقل.

رابعاً:- أشهر المؤلفات فيه

كان النبي ﷺ وصحابته الكرام يعرفون عن القرآن الكريم وعلومه ما لا يعرفه أحد غيرهم ولكنهم لم يدونوا معارفهم في كتب للأسباب التالية:-

1- لعدم حاجتهم إلى التدوين والكتابة لوجود المنبع الأصلي لتلك العلوم وهو النبي ﷺ بينهم.

2- عدم تيسر أدوات الكتابة لديهم بالقدر الكافي لكتابة مختلف العلوم.

3- والأهم من هذا وذاك هو: أن النبي ﷺ كان قد حظر على المسلمين كتابة شيء عنه غير القرآن خوفاً من اختلاطه بغيره، فقال ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه:جـ18-ص129

"لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليبوأ مقعده من النار". واستمر الأمر على ذلك طوال خلافة أبي بكر وعمر من بعده، ولما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه وجمع القرآن الجمع الأخير وضع بعمله الجليل هذا حدّاً لاحتمال زيادة القرآن أو نقصانه، حيث جعله في مصحف ونسخ منه عدة نسخ بعث بها إلى الآفاق الإسلامية وأمر بحرق ما عداها من الصحف أو المصاحف، فيكون بهذا قد وضع أساساً لعلم رسم القرآن، وفي العهد الأموي أمر زيادة بن أبيه أبا الأسود الدؤلي بوضع شكل لألفاظ القرآن الكريم تفادياً لتسرب اللحن إليه، وهو ما عرف فيما بعد بعلم إعراب القرآن[1].

هذا كله كان في **القرن الأول** الهجري، أي في النصف الأول منه، أما في نصفه الثاني، وفي أول **القرن الثاني**، فقد كتب بعض التابعين في التفسير وأسباب النزول مثل شعبة بن الحجاج وسفيان ابن عيينة ووكيع بن الجراح، وغيرهم.

وفي القرن الثالث: ألّف الإمام علي بن المديني شيخ الإمام البخاري في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم.

وفي القرن الرابع: كتب أبو بكر السجستاني في غريب القرآن.

---

1 – وقيل إن المشير بما ذكر على أبي الأسود هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي القرن الخامس: ألّف علي بن سعيد الحوفي في إعراب القرآن وتفسيره.

وفي القرن السادس: جاء الإمام عبد الرحمن السهيلي وكتب في مبهمات القرآن.

وفي هذا القرن كان أول ظهور هذا العلم باصطلاحه المعروف (علوم القرآن) على يد العلامة ابن الجوزي، حيث ألّف كتابين أحدهما باسم (فنون الأفنان في علوم القرآن)، والثاني باسم (المجتبي في علوم تتعلق بالقرآن)، وقيل بل إن ظهوره كان قبل هذا القرن فكان في القرن الخامس على يد الحوفي المتقدم ذكره، فقد سمى كتابه السالف (البرهان في علوم القرآن) غير أن هذا الكتاب وجده من اطلع عليه أشبه ما يكون بكتب التفسير المعروف وليس له من علوم القرآن إلا الاسم[1]، أو ما يتكلم عليه من أنواع هذا العلم أثناء التفسير.

وفي القرن السابع: ألف علم الدين السخاوي في القراءات كتاباً سماه جمال القراء.

ثم أهلّ القرن الثامن: الذي أتحفنا فيه الإمام بدر الدين الزركشي بكتابه القيم (البرهان في علوم القرآن) وهو كتاب مطبوع في أربعة أجزاء وشامل لأغلب أنواع العلم.

وفي القرن التاسع: أكمل الإمام جلال الدين السيوطي ما أغفله سلفه الزركشي وأبدع وأتقن وأجاد في هذا العلم بتأليف كتابه الشهير (الإتقان في علوم القرآن)، وكتابه هذا لا يزال المرجع الأول للباحثين في علوم القرآن إلى عصرنا الحاضر، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم.

---

1 - والاسم أيضاً قد ذكره صاحب طبقات المفسرين باسم (البرهان في تفسير القرآن) والتسمية المذكورة أثبتها صاحب مناهل العرفان.

وبعد عصر السيوطي، فتر التأليف في هذا العلم على الطريقة المعروفة[1]، إلى أن قرر العلماء دراسته في الجامعات الإسلامية كمادة مستقلة عن التفسير، مثل كليات الجامعة الأزهرية بمصر وكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة قاريونس في ليبيا، وبهذا انفتح المجال أمام علماء العصر الحديث فألفوا فيه الكتب والمذكرات، وتوسعوا في الشرح والإيضاح، وأضافوا إليه كثيراً من المباحث القيمة، ومن أمثلة ما كتبوا (التبيان في علوم القرآن) للشيخ طاهر الجزائري، و (منهج الفرقان) لابن سلامة.

ومن أوفى ما كتب في علوم القرآن حديثاً وأسهله وأغزره علماً (مناهل العرفان في علوم القرآن) تأليف الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، وهو مطبوع في جزءين من الحجم المتوسط.

ويقرب من المناهل من حيث الشمول لأغلب مباحث العلم، إلا أنه أخصر وأسهل أسلوباً وأقرب منالاً كتاب (اللآلئ الحسان في علوم القرآن) للشيخ الدكتور موسى شاهين لاشين، وقد طبع سنة 1969م في مجلد وهو الذي اختير للتدريس بقسم أصول الدين بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية السالف ذكرها. هذا ولما أسند إليّ تدريس مادة علوم القرآن بهذا القسم، وجدت أن المنهج المقرر غير متمشٍّ مع الكتاب بالترتيب، ولاحظت عليه الاختصار في بعض الموضوعات وأيضاً، فإن نسخ هذا الكتاب لا توجد بالقدر الكافي، والغالبية من الطلاب لم يتحصلوا عليها، فمن أجل هذا كتبت ما ألقيته من محاضرات لتكون في أيدي أبنائي الطلاب يرجعون إليها متى شاءوا، وها هي الآن تقدم إلى الطبع ليعمّ النفع وتتيسر الإفادة، إن شاء الله تعالى.

---

1 - أعني أنه لم تؤلف كتب خاصة بعلوم القرآن، فلا ينافي أن بعض المفسرين كتبوا مباحث منه وجعلوها كمقدمات لتفاسيرهم مثل الألوسي والخروبي من المفسرين، في تلك الفترة من الزمن.

الأسئلة

س1- اذكر أهم مبادئ علوم القرآن وعرفه باعتباره علماً مستقلاً وفـــناً مدوناً مبيناً معنى العلم في اللغة والاصطلاح؟ ولماذا جاء التعبير عن هذا العلم بلفظ الجمع دون الأفراد فقالوا علوم القرآن و لم يقولوا علم القرآن؟

س2- لفظ القرآن علّم على كتاب الله الخاتم اذكر أشهر أسمائه الأربعة الأخرى مستدلاً على تسميته بها من القرآن؟ ثم اذكر عدد أسمائه التي ذكرها بعض العلماء؟

س3- عرف القرآن في اللغة مبيناً هل هو مهموز أو غير مهموز؟ وهل هو جامد أو مشتق ومم اشتق على القول باشتقاقه؟ اذكر أرجح الآراء في هذا؟ ثم عرف القرآن في الاصطلاح واشرح التعريف مبيناً الفرق بينه وبين غيره من الكتب المترلة والحديث القدسي؟

س4- عرف علوم القرآن واذكر موضوعه؟ والهدف من دراسته وشدة الحاجة إليه مع التعليل؟

س5- كان النبي ﷺ وصحابته الكرام يعرفون عن القرآن وعلومه ما لا يعرفه غيرهم ولكنهم لم يدونوه في مؤلفات؟ اذكر أهم أسباب عدم تدوينهم لعلوم القرآن في ذلك العصر؟ ثم بين أسماء بعض من كان لهم السبق من التابعين أو أتباعهم في تدوين بعض علوم القرآن في بداية القرن الثاني الهجري وما بعده إلى السادس؟

س6- في القرن السادس الهجري ظهر كتابان يحملان عنوان علوم القرآن لمؤلف واحد، اذكر اسميهما واسم المؤلف، ثم تحدث عن تطور هذا العلم ونموه عبر العصور حتى تصل إلى العصر الحاضر، مبيناً أسماء الكتب المؤلفة في هذا العلم في القرون السابع

والثامن والتاسع، وما هو أوفى كتاب ظهر في العصر الحديث، ويوصف بأنه أسهل كتب علوم القرآن أسلوباً وأغزرها علماً والكتاب، الذي يليه في تلك الأوصاف؟ ولكنه أخصر منه؟

المبحث الأول

الوحـــي

أهميته:-

ترجع أهمية مبحث الوحي إلى أنه هو: الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة حقائق عالم الغيب[1]، وهو أيضاً الوسيلة التي بها يتلقى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن المولى عز وجل ما يكلفهم بتبليغه إلى الناس من أوامر ونواه وسائر التعاليم الإلهية السامية التي أنزلها لإنقاذ البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الشرك والجهل والضلال إلى نور الإيمان والعلم والهداية إلى الصراط المستقيم.

فما معنى الوحي لغة؟ وما المراد من الوحي الإلهي؟ وما أنواعه؟ وما الدليل على ثبوته شرعاً وعقلاً؟

أولاً:- تعريف الوحي لغة

وهو في اللغة مصدر وَحَى يوحي وحياً، ويطلق ويراد به اسم المفعول وهو الكلام الموحَى به الذي أنزله الله تعالى على أي نبيء من أنبيائه أو أي رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام.

ويطلق أيضاً ويراد به المعنى المصدري الذي هو الإيحاء أي الإعلام الخفي السريع، يقال: وَحَى الله كذا إلى أحد الأنبياء أي قذفه في قلبه وألهمه إياه، ويكون ذلك في اليقظة أو في المنام[2].

---

1 - وذلك لأن العالم وهو ما سوى الله تعالى نوعان: عالم غيب، وعالم الشهادة، فعالم الغيب هو ما غاب عن الخلق فلا تقع عليه حواسهم، وعالم الشهادة عكسه، انظر مفردات الراغب الأصفهاني، ص366.

2 - انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، مج 2، ص831.

وله معانٍ أخرى كثيرة وردت في القرآن الكريم وكلها تتضمن[1] الإعلام خفي السريع الخاص بالموحّى إليه بحيث يخفي عن غيره[2]، وفيما يلي بيان هذه المعاني والتمثيل لها من القرآن الكريم وتوضيحها:-

أ- الإلهام الفطري للإنسان[3] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي.. ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[5]، وفي المفردات للراغب: إن الوحي إلى الحوريين كان بواسطة نبي الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام[6].

ب- الإلهام الغريزي للحيوان غير العاقل كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ... ﴾[7].

ج- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء وحُمل عليه قوله تعالى حكاية عن نبيه زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن

---

1 - من هذه المعاني الرمز والكتابة والإشارة والرسالة.

2 - انظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص23 وقارن.

3 - الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب منها من غير شعور منها من أين يأتي وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور، انظر مناع القطان في مباحث من علوم القرآن، ص33.

4 - الآية 7 من سورة القصص.

5 - الآية 111 من سورة المائدة.

6 - المفردات في غريب ألفاظ القرآن، ص516.

7 - الآيتان 68-69 من سورة النحل.

سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[1]، والمعروف في تفسيرها أنه عليه السلام أومأ إليهم وأشار إشارة و لم يتكلم كما نقل على الفراء[2].

د- وجاء أيضاً التعبير بالوحي في القرآن عن وسوسة الشياطين وتزيينها خواطر الشر للإنسان قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[4].

هـ- وعبر القرآن بالوحي على ما يلقيه الله تعالى إلى الملائكة ويأمرهم به ليفعلوه من فورهم[5]، قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[6].

هذه أشهر المعاني اللغوية للوحي، وجاء أيضاً لمعان أخرى كثيرة غير أن أغلبها مرادف أو شديد الصلة بما يتحمله النبيء الموحي إليه من الملك ليبلغه إلى قومه المرسل إليهم، ومن هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[7] ، وقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا

---

[1] - الآية 11 من سورة مريم.
[2] - انظر لسان العرب لابن منظور، ج20، ص258.
[3] - الآية 112 من سورة الأنعام.
[4] - الآية121 من سورة الأنعام.
[5] - وهذه الآية ونحوها تدل على أن الله تعالى يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه، انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص34.
[6] - الآية 12 من سورة الأنفال.
[7] - الآيات 1-4 من سورة النجم.

أَوْحَى﴾[1]، وقوله: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[2]. وفي هذه الآية دلالة على أن الوحي إلى النبي محمد ﷺ هو كالوحي إلى من سبقه من الأنبياء والرسل في اللفظ والمعنى على حد سواء والمعنى التي تدل عليه هذه الآيات ونحوها هو المعنى الاصطلاحي للوحي كما نرى في النقطة التالية:-

ثانياً:- تعريف الوحي في الاصطلاح

عند التأمل في نصوص القرآن الوارد فيها لفظ الوحي الذي تقدم بعضها نستطيع أن نعرفه بأنه: **إعلام الله تعالى من أختارهم من خلقه بما يشاء من كلام أو معنى يتضمن الهداية بطريقة خفية تفيده العلم اليقيني بما أعلمه الله به من هداية وإرشاد.**

ومن الملاحظ على هذا التعريف أنه شامل لعناصر مهمة منها ما يلي، وهي بمثابة شرح وتوضيح له:-

1- إنه إعلام من الله تعالى المحيط بكل شيء علماً لا من أحد سواه، وأن هناك ذاتاً إلهية كاملة الإرادة فيما تُوحى، وأن النبي الموحَى إليه له شخصية مستقلة متلقية مأمورة بما يوحي به إليها.

2- إن الرسول أو النبي يتلقى ما يوحى إليه وهو مستجمع لقواه الفكرية وشعوره كاملاً عندما يتلقى ما يوحى إليه من جانب الله تعالى من هداية وتوجيه وإرشاد.

---

[1] - الآية 10 من سورة النجم.

[2] - الآية 163 من سورة النساء.

3- إن ما يلقي إلى الرسول أو النبي من كلام أو معنى يحتل من ذاته مركز العلم اليقيني ويتأكد من صحته وأنه من الله تعالى دون شك أو تردد.

4- إن الوحي هو الطريق الوحيد للعلوم الإلهية الموجهة إلى جميع الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ والوحي فضل من الله تعالى يختص به من يشاء من عباده، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾[3].

ثالثاً:- أنواع الوحي

المراد من الوحي هنا والمنقسم إلى الأنواع الآتية، ما هو أعم ليشمل تكليم الله تعالى بعض أنبيائه ورسله المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[4]، وغيره إذ أن هذه الآية تفيد أن الوحي يأتي على أوجه وهيئات ثلاث، وهي:-

الأولى:- الوحي وهو الإلهام الذي يقع في النفس أو رؤيا صادقة مع التيقن في كل منهما أنه من الله تعالى كما تقدم في التعريف السالف.

1 - الآية 86 من سورة القصص.
2 - الآية 124 من سورة الأنعام.
3 - الآية 52 من سورة الشورى.
4 - الآية 51 من سورة الشورى.

الثانية:- التكليم من وراء الحجاب بأن يسمع الموحَى إليه كلام الله تعالى من غير أن يراه كما وقع لموسى عليه الصلاة والسلام.

الثالثة:- ما يكون عن طريق رسول من الملائكة وهو جبريل عليه السلام[1]، وهذه عامة للأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام والثانية خاصة بموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام[2].

وأما الأولى فتكون للأنبياء والأولياء كثيراً[3]، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط بوسوسة الشيطان لأنهم غير معصومين بخلاف الأنبياء فإلهامهم محفوظ منه[4]، وفيما يلي تفصيل جميع أنواع الوحي ما دلت عليه الآية وغيرها:-

النوع الأول:-

إلقاء المعنى الموحَى به في قلب النبي الموحَى إليه، وهو المعبر عنه في الحديث الشريف بالنفث في الروع[5]، وهو الإلهام يدل عليه في الآية لفظ وحياً، وقد فسره العلماء بقولهم: وذلك بأن يخلق الله تعالى في قلب الموحَى إليه علماً ضرورياً بأنه من عند الله تعالى، كما روى عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))[6].

---

1 - انظر: تفسير النسفي، جـ4، ص111-112.

2 - فإن الله تعالى كلم نبيه محمداً ليلة الإسراء والمعراج.

3 - التسهيل لعلوم التنزيل، ص614.

4 - نقله الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير عن الصاوي، جـ3، ص146، من الصفوة.

5 - الروع بضم الراء القلب، أو موضع الفزع منه والنفث النفخ بدون ريق.

6 - الحديث رواه أبو نعيم في الحلية بسند صحيح، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص40.

النوع الثاني:-

أن يسمع الرسول كلام الله تعالى من وراء حجاب من غير أن يرى السامع من يكلمه، والمراد أن السامع محجوب عن الرؤيا في الدنيا، وليس المراد حجب الله تعالى لأنه لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب[1]، وهذا النوع قد وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فناداه ربه بالواد المقدس طوى من جانب الطور الأيمن، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[4].

ومن هذا النوع أيضاً ما وقع لسيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حين فرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلاة في السموات العلي كما ثبت في الحديث الصحيح عنه ﷺ[5].

---

1 - من تفسير النسفي بتصرف، جـ4، ص112.

2 - الأيات من 11-14 من سورة طه.

3 - الآية 30 من سورة القصص.

4 - الآية 164 من سورة النساء.

5 - في أحاديث متعددة منها ما رواه أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: فرضت على النبي ﷺ ليلة أسرى به الصلوات خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ثم نودي يا محمد أنه لا يبدل القول لدى وإن لك بهذه الخمس خمسين، أي أجر الخمسين التي فرضت أولاً، رواه الخمسة منهم البخاري ومسلم وغيرهما، انظر التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول، جـ1، ص153.

النوع الثالث:-

ما كان بواسطة ملك الوحي – جبريل عليه السلام-: تُرى صورته ويُسمع صوته ويفهم كلامه فَيُعْلم النبي ﷺ بما أرسله الله به، وهذا النوع هو الغالب والكثير في الوحي لرسول الله محمد ﷺ وخصوصاً بالنسبة للقرآن الكريم، قال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني مشيراً إلى هذا النوع من الوحي: وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[2]، وقال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

ولهذا النوع من الوحي حالتان:-

الأولى:-

أن يأتي الملك في صورته الأصلية الملكية وهي أشد حالات الوحي على النبي ﷺ، فيسمع للوحي في هذه الحالة صوت يشبه صلصلة الجرس أو دوي النحل ولعل الحكمة في وقوعه ليكون كمقدمة لما سيلقى على النبي فيتهيأ فيستعد لتلقي الوحي ويستجمع قواه لذلك.

الثانية:-

أن يتمثل الملك في صورة رجل من البشر فيكلم الرسول ويملي عليه ما أراده الله من العلم والهداية، وهذه الحالة أخف على الرسول من سابقتها للتناسب بين المتكلم

---

1 - مناهل العرفان في علوم القرآن، جـ1، ص64.

2 - الآيات 192-195 من سورة الشعراء.

3 - الآية 94 من سورة البقرة.

والسامع، جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه: ((سئل فقيل له: كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم[1] عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني[*] فأعي ما يقول))[2]، في هذا الحديث أن النبي ﷺ يصرح بأنه يعي ما أوحى به إليه في الحالتين فيقول في الأولى: فيفصم عني وقد وعيت ما قال، ويقـــول في الثانـــية: فيكلمني فأعي ما يقول فأثبت لنفسه ﷺ الوعـــي الكامـــل قـــبل الوحي وبعده وفي أثنـــائه سواء أخفت وطأة الوحي عليه أم اشتدت[3].

النوع الرابع:-

ما كان عن طريق الرؤيا المنامية الصادقة وهو بلا واسطة بين الموحي والموحَى إليه ويدخل في النوع الأول من الأنواع التي تضمنتها آية الشورى المتقدمة المعبر عنها بتكليم الله تعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام[4].

وهذه الطريق جاء بها الوحي إلى رسول الله محمد ﷺ في بداية البعثة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، كما ورد في الصحيح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، قالت: إن أول ما بدأ الوحي إليه ﷺ كان عن طريق الرؤيا المنامية

---

1 - ينكشف وينجلي.

* - روى أن جبريل كان يأتي إلى النبي ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبي.

2 - الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

3 - انظر مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح، ص28.

4 - انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص516.

الصادقة[1]، ولعل وقوع الوحي في البداية كان بهذه الطريقة تمهيداً له ﷺ ومقدمة للوحي إليه يقظة.

وقد دل القرآن الكريم على أن الوحي إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كان يأتي إليه مناماً وهو ما جاء في قصته عليه السلام من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل عليه السلام[2]، قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3]، ويؤكد هذه الطريقة ويؤيدها قوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((نحن معاشر الأنبياء تنام عيوننا ولا تنام عقولنا))[4].

رابعاً:- إثبات الوحي شرعاً وعقلاً

أما إثباته شرعاً فقد جاء في الأدلة النقلية الكثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي تدل على وقوعه للنبي محمد ﷺ وللأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن

---

1 – نص الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بدئ الوحي له صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح" متفق عليه.

2 – على القول الصحيح من أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق كما يدعي اليهود.

3 – الآيات من 101-107 من سورة الصافات.

4 – الحديث رواه البخاري في صحيحه.

رَبِّي﴾[1]، وقد تقدمت الآية التي تصرح بأن الوحي ثابت للأنبياء السابقين، وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ... ﴾[2].

وأما إثباته عقلاً فلإنه من الأمور الممكنة عقلاً وأخبر بوقوعه الصادق وكل ممكن أخبر بوقوعه الصادق فهو حق لا شك فيه ولا ريب، إذاً الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثابت وهو المطلوب، والدليل على صدق الرسل ما أيدهم الله به من المعجزات[3] التي ظهرت على أيديهم فهي قائمة مقام قوله عز وجل صدق عبدي فيما يبلغ عني[*]، ومنه أنه يوحى إليه وهو المطلوب هذا مع العلم بأن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين اصطفاهم الله تعالى ونزههم عن السيئات وعصمهم[4] من المعاصي كبيرها وصغيرها وحلاهم بالأخلاق العظيمة والصفات السامية من الصدق والأمانة والتفاني في الحق وإقامة الدين الذي ارتضاه الله تعالى[5].

---

1 – الآية 203 من سورة الأعراف.

2 – الآية 163 من سورة النساء.

3 – المعجزات جمع معجزة، وهي تعجز العقل عن تفسيرها كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها وهي الآيات والعلامات التي أيد الله تعالى بها أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام تدل دلالة قطعية على انه مُرسل من عند الله تعالى، ولا بد أن تكون خارجة عن مقدور البشر وعلومهم ومعارفهم ومخالفة أيضاً للسنن المادية الطبيعية، ومن هنا سماها العلماء بالمعجزات وعرفوها بأنها: أمور خارقة للعادة يظهرها الله تعالى على يدي نبي مرسل ليقيم بها الدليل القاطع على صدق نبوته ورسالته وهي من الأمور الممكنة في ذاتها والعقل لا يمنعها والعلم لا ينفيها والواقع يؤيدها؛ العقائد الإسلامية للسيد سابق، ص208.

– انظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم البيجوري، ص121.

4 – هي أنهم لا يتركون واجبا ولا يفعلون محرماً ولا يقترفون ما يتنافى مع الخلق الكريم أو هي حفظ الله تعالى للمكلف من الذنب.

5 – انظر العقائد الإسلامية، ص180، وشرح البيجوري على جوهرة التوحيد، ص123.

خامساً:- شبهات أثيرت حول الوحي وإبطالها

أورد أعداء الديانات والملاحدة شبهات حول هذا الموضوع منها:-

الشبهة الأولى: يقولون منكرين الوحي لسيدنا محمد ﷺ: إن محمداً كان عصبياً حاد المزاج وكان مريضاً بما يسمونه (الهستيريا) فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحالة التي أصيب بها[1].

جواب الشبهة وإبطالها: أقول إن ما يقولونه في شأن سيدنا محمد ﷺ ما هو إلا فرية وكذب محض يدل على جهل هؤلاء القائلين بحياة محمد ﷺ بل المعروف عنه بشهادة الواقع والتاريخ الصحيح والأدلة القاطعة أنه كان سليم الجسم وديعاً حليماً صبوراً بل كان عظيم الصبر واسع الحلم، حتى وسع الناس جميعاً بحلمه وخلقه وكان شجاعاً مقداماً يثبت في الميدان حين يفر الشجعان كما هو معلوم في سيرته عليه الصلاة والسلام[2].

الشبهة الثانية يقولون: لو كان الوحي ممكناً لأوحى الله لأفراد البشر عامة ولم يخص به شرذمة قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه.

الجواب: أقول، إن عامة البشر ليس لديهم استعداد لتلقي الوحي عن الله لا مباشرة ولا بواسطة الملك حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر في صورة إنسان وحينئذ يعود اللبس ويبقى الأشكال فاقتضت الحكمة أن يجعل الله من بني الإنسان طائفة مختارة لها استعداد خاص يؤهلها لأن تتلقى عن الله الوحي ثم تؤديه في أمانة إلى العامة من

---

1 - إن الهستيريا التي يصمون بها سيدنا محمداً ﷺ كذباً وافتراء مرض عصبي عضال أكثر أصابته النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخلق وضيق في التنفس واضطراب في الهضم..، وقد يصل إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين، من المناهل، جـ1، ص81.

2 - من مناهل العرفان للزرقاني بتصرف واختصار، جـ1، ص81.

إخوانهم بعد أن جعل الله لهم ما يؤيدهم من الآيات والمعجزات الخارقة للعادة التي تدل على تصديقهم فيما يدعون إليه وهو المطلوب[1].

الشبهة الثالثة: يقولون إن الوحي الذي تدّعونه وتدَّعون تنجيمه جاء بقرآن غير مرتب ولا منظم فلم يفرد كل غرض منه بفصل أو باب شأنه شأن سائر الكتب المنظمة بل مزجت أغراضه مزجاً غير مراعي فيه نظام التأليف فيبعد أن يكون وحياً من الله.

الجواب: وفيه أقول: إن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا يعد عيباً فيه ولا في وحيه وموحيه، بل هي على العكس دليل مادي على أنه ليس بكتاب وضعي بشري يجعل واضعه لكل طائفة من معلوماته المتناسقة فصلاً ولكل فصل من فصوله المتناسبة باباً، بل هو مجموع إشراقات من الوحي الإلهي الأعلى اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة كما سيأتي تفصيله في بيان أسرار تنجيم نزول القرآن[2].

بل إن المعروف عن القرآن أنه يقوم بين جمله وآياته وسوره تناسب بارع وارتباط محكم وائتلاف بديع ينتهي إلى حد الإعجاز خصوصاً إذا لاحظنا أن نزوله كان منجماً في الأيام والليالي والشهور والسنين في نحو ثلاث وعشرين سنة.

---

1 – من مناهل العرفان بتصرف واختصار، جـ1، ص77-78.

2 – نفس المصدر السالف، ص80.

الأسئلة

س1- تحدث عن أهمية الوحي على أي شيء بنيت؟ واذكر النقاط الواردة فيه بجملة؟ ثم عرف الوحي في اللغة مبيناً إطلاقاته المتعددة ومعانيه الواردة في القرآن مع بيان ما يشهد لكل معنى منها من الآيات القرآنية؟

س2- عرف الوحي في الاصطلاح؟ واشرح التعريف ببيان الملاحظات التي لوحظت عليه؟

س3- اذكر أنواع الوحي من حيث هو أعم ليشمل جميع المعاني الواردة في قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه ..﴾ الآية مفصلاً كل نوع على حدة ومستدلاً له بالآيات التي تؤيده وتوضحه؟

س4- يعبر بعض العلماء عن الوحي بالقرآن إلى النبي محمد ﷺ بالوحي الجلي، وبين أن له نوعين، اذكرهما مستدلاً عليهما بما يحضرك من الحديث الصحيح؟

س5- تحدث عن إثبات الوحي عقلاً وبالاستدلال عليه سمعاً مبيناً معنى المعجزة لغة وشرعاً؟ وكيف يثبت بها الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

س6- أورد الملاحدة وأعداء الأديان شبهات حول الوحي، اذكر هذه الشبه؟ وأجب عنها بما يبطلها؟

المبحث الثاني
نزول القرآن

مدخل المبحث وأهميته:-

من المعلوم أن القرآن الكريم كلام الله تعالى بمعناه ولفظه العربي، وليس لجبريل عليه السلام إلا نقله وحكايته، ولا لمحمد ﷺ إلا تبليغه للناس بلفظه الذي نقله عن جبريل عليه السلام، ثم بيانه لهم بالقول والعمل، لذلك تكلم العلماء في معنى نزول القرآن وجهاته ومراته، واعتبروه من المباحث المهمة، لأن العم بنزول القرآن من عند الله تعالى أساس للإيمان بالقرآن وللتصديق برسالة سيدنا محمد ﷺ، وقد وصف بعض العلماء [1] هذا المبحث فقال: (من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي..).

وسيتناول الكلام هنا النقاط التالية: معنى النزول لغة والمراد به بالنسبة لنزول القرآن- مرات نزول القرآن، حكم تنجيم نزول القرآن على النبي ﷺ، المكي والمدني من القرآن ومميزات كل منهما وفوائد العلم بهما.

وإليكم التفصيل:-

1- معنى النزول

يطلق النزول لغة، ويراد منه أحد المعنيين:-

أولهما: الحلول والأويّ في المكان، مثاله نزل الأمير المدينة، ومن المتعدي قوله تعالى:﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[2]

وثانيهما: الانحدار من مكان عالٍ إلى أسفل، كقولك نزلت من الجبل، ومن المتعدي قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا﴾[3].

[1] – هو أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) نقله السيوطي في الإتقان، جـ1، ص8، ط حم.

[2] – الآية 29 من سورة المؤمنين.

[3] – الآية 48 من سورة الفرقان.

ومن الواضح أن كلاً من المعنيين لا يصح إرادته بالنسبة لإنزال القرآن أو نزوله - يلزم على ذلك من المكانية والجسمية، والنازل الذي هو القرآن ليس بجسم، ومنزله وهو الله سبحانه وتعالى منـــزه عن المكانية والجهة، إذاً، لا بد من صرف هذا اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي مناسب، لا سيما وقد جاء التعبير به في القـــرآن الكـــريم والحديث النبوي الشريف، قال تعالى:﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَـــقِّ نَزَلَ﴾[1]، وقـــال ﷺ: ((إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف))[2]. ولعل أنسب المعاني لإنزال القرآن في جميع إطلاقاته[3] وتنـــزلاته، هو الإعلام[4] من إطلاق اللفظ وإرادة لازمه على طريقة المجاز المرسل؛ لأن إنزال شيء إلى شيء يلزم منه إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء به.

ولعل السر في التعبير عن إعلام النبي ﷺ بالقرآن بلفظ الترول أو الإنزال هو: الدلالة على علو مترلة هذا الكتاب الحكيم والتنويه بشرفه، نظراً لما تشير إليه مادة النـــزول من علو صاحب الكتاب علواً كبيراً.

2- تنـــزلات القرآن، أو مرات نـــزوله

من الثابت تاريخياً، وفي السنّة النبوية الشريفة، أن الله تعالى قد شرف كتابه المعجز – القرآن الكريم- وجعل له ثلاث تنـــزلات مبالغة في نفي الشك عنه وتأكيداً لمزيد الثقة فيه، وهي مع أدلتها وبيان الحكمة منها، كما يلي:-

---

1 – الآية 105 من سورة الإسراء.

2 – مناهل العرفان، جـــ1، ص140، والحديث رواه الشيخان.

3 – إي إطلاقات القرآن لأنه كما يطلق على اللفظ العربي المعجز الذي نقرؤه كذلك يطلق على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى الدالة على القرآن.

4 – وذلك لأن المقصود من إثبات القرآن في اللوح وفي السماء الدنيا وفي قلبه ﷺ هو إعلام الخلق في العالمين العلوي والسفلي بما شاء الله دلالتهم عليه من الحق.

أ – التنـــزل الأول إلى اللوح المحفوظ

بمعنى إثباته ووجوده فيه من غير ملاحظة علو أو سفل، وفي وقت وبكيفية يعلمهما المولى عز وجل، ومن أطلعه على غيبه من خلقه، ونـــزوله في هذه المرة جملة لا مفرقاً لأنه الظاهر من اللفظ ولا صارف يـــصرفه عنه، ولأن حكم التنجيم الآتية لا تتحـــقق فيه[1].

دليله:- قوله تعالى في سورة البروج:﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[2]

وأما الحكمة من إثباته في اللوح: فترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وهي: كونه سجلاً جامعاً لما كان وما سيكون من العوالم، ومظهراً رائعاً من مظاهر قدرة الله تعالى. قال عزَّ شأنه:﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[3] .

ب– التنـــزل الثاني من اللوح إلى السماء الدنيا

كان النـــزول الثاني للقرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا[4]، وهو على الصحيح كان جملة لا مفرقاً، حكى القرطبي الإجماع على ذلك دليله، قوله تبارك وتعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[5]، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي

---

1 – مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، جـ1، ص43.

2 – الآيتان 21– 22 من سورة البروج.

3 – الآيتان 22–23 من سورة الحديد.

4 – جاء التعبير في حديث النـــزول في طرقه المختلفة بلفظ السماء الدنيا، وبلفظ سماء الدنيا فيفهم منه أن المعنى واحد والله أعلم.

5 – الآية 185 من سورة.

﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله:﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فهذه الآيات الكريمة الثلاث تدل جميعها، كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه، والحسن وابن جبير[1]، على أن القرآن أنـــزل في ليلة واحدة تسمى ليلة القدر، وموصوفة بأنها مباركة وأنها من ليالي شهر رمضان، بدليل قوله ﷺ في شأن ليلة القدر، وأنها في رمضان: ((تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان))، رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها. هذا، ومن المقطوع به أن القرآن الكريم نـــزل على النبي ﷺ مفرقاً في الليالي والشهور والسنين حسب المناسبات والوقائع، فتعين أن يكون النـــزول المذكور في هذه الآيات غير النـــزول على النبي ﷺ، فيكون المراد نـــزوله من اللوح إلى السماء الدنيا، وهو ما صرحت به الروايات الكثيرة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2]، منها ما أخرجه الحاكم عن ابن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينـــزل به على النبي ﷺ[3].

حكمته: وأما الحكمة من وقوع هذا التنـــزيل، فهي: ما ذكرها الإمام السيوطي فقال: (هي تفخيم أمره وأمر من أنزل عليه وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا هو آخر الكتب المنـــزلة على خـــاتم الرســـل لأشـــرف الأمم قد قربناه إليهم لننـــزله عليهم)، أ.هـــ[4].

1 – وعن ابن إسحاق أن معناها ابتداء نزوله في رمضان في ليلة القدر، وعلى هذا لا يكون المراد به الإنزال إلى السماء الدنيا، وإنما مراده إنزاله إلى النبي ﷺ، وهو التنـــزل الثالث كما سيأتي.
2 – رواه ابن عباس وأخرجه الحاكم وابن أبي حاتم والبيهقي وابن أبي شيبة والنسائي والطبراني والبزار.
3 – الإتقان للسيوطي، جـــ1، ص40.
4 – المصدر السالف نفسه.

جـ- التنــزل الثالث

هذه هي المرحلة لأخيرة لنزول القرآن الكريم التي أضاء نورها العالم وبددت شمسها دياجير الشرك وظلمات الجاهلية، ووصلت بها هداية الله العظمى لخلقه، وقعت بواسطة أمين الوحي - جبريل - عليه السلام، نــزل بالقرآن على قلب نبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله ﷺ.

دليله: قول الحق تبارك وتعالى مخاطباً النبي ﷺ: بقوله تعالى:﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]

كيف تلقى جبريل القرآن عن المولى عز وجل:-

اختلف العلماء في الكيفية التي أخذ بها جبريل القرآن عن الله تعالى على قولين:-

أولهما وأولاهما: أنه عليه السلام أخذ القرآن سماعاً من الله تعالى، يدل له حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه فيما أخرجه الطبراني عنه، مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: ((إذا تكلّم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله عز وجل، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجّداً، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ويكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال الحق فينتهي به حيث أمر))[2].

وثانيهما: أن جبريل عليه السلام يقرأ من اللوح المحفوظ ما قدر له أن ينــزل به فيحفظه ويلقيه إلى النبي ﷺ، وقد علمت أن الأول أولى بالقبول، وذلك لأن القرآن نــزل على النبي ﷺ نجوماً مفرقاً حسب الوقائع والمناسبات، وهي قبل وقوعها أمور غيبية لا يعلمها

1 - الآيات 193-195 من سورة الشعراء.

2 - مناهل العرفان، جـ1، ص41.

إلا المولى عز وجل علاوة على ما في السماع من زيادة الثقة، وأيضاً قد استند الأول إلى الرواية المرفوعة إلى النبي ﷺ كما تقدم، وهذا ليس كذلك.

هذا وليس ببعيد أن يكون الوحي بالقرآن جاء بالطريقتين –طريقة السماع وطريقة القراءة– فبعض النجوم جاءت بهذه وبعضها الآخر جاء بتلك، ويجوز أن يكون الملك جمع بينهما في كل نجم من نجوم القرآن تأكيداً للثقة ونفياً للشك – والله أعلم–.

كيف تلقى النبي ﷺ القرآن؟

المعروف أن النبي ﷺ كان يأخذ القرآن بإحدى طريقتين:

إحداهما: أن يتغير النبيﷺ عن صورته الطبيعية ويظهر له الملك بصورته الملكية ويوحى إليه بما شاء الله أن يبلغه إياه، وفي هذه الحالة يظهر أثر الوحي على جسمه الشريف ﷺ فيتغير لونه ويثقل جسمه ويشتد عليه العرق في اليوم الشديد البرد، ويسمع للوحي في هذه الحالة صوت يشبه صلصلة الجرس أو دوي النحل، وربما يسمعه بعض الحاضرين ولكنهم لا يفهمون شيئاً، أما النبي ﷺ فإنه يسمع ويعي ويعلم علماً ضرورياً أنه وحي الله وكلامه دون لبس أو خفاء. يدل لهذا، الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعلى عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس[1]– وهو أشده عليّ– فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً

---

[1] – في الإتقان، قال الخطابي، والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد.. والحكمة من تقدمه أن يفرغ سمعه للوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره، أ.هـ، جـ1، ص44.

فيكلمني فأعي ما يقول)) قالت عائشة: (ولقد رأيته ينــزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب عرقاً)[1].

ثانيتهما: أن يتحول الملك من صورته الملكية إلى صورة بشر ويكلم الرسول ﷺ مشافهة بما يريد.

كانت الحالة الأولى أشد على جسم النبي ﷺ كما صرح بهذا في الحديث السالف.

ما الذي ينــزل به جبريل عليه السلام:-

الحق الذي لا محيد عنه أن ألفاظ القرآن المعجزة ومعانيه السامية كلها – من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس- من عند الله تبارك وتعالى لا دخل لجبريل عليه السلام ولا لمحمد ﷺ في إنشائها ولا في ترتيبها، فليس لجبريل فيها سوى الحكاية والنقل والتبليغ، ولا لمحمد سوى الحفظ والفهم والتبليغ والتفسير ثم التطبيق والتنفيذ، وأما ما قيل من أن المنــزل من عند الله هو المعنى فقط، وأما اللفظ العربي فهو إما من محمد ﷺ أو من جبريل – عليه السلام- فقول بعيد عن الصواب مصادم لصريح القرآن والسنّة، بل قال الشيخ عبد العظيم الزرقاني في المناهل: إنه مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإلا فكيف يكون القرآن معجزاً واللفظ من عند محمد أو جبريل، ثم كيف تصح نسبته إلى الله في قوله عز من قائل:﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾[2]

---

[1] – مناهل العرفان، جـ1، ص58.

2 – الآية 6 من سورة التوبة.

تنجيم نـــزول القرآن والحكمة منه

من الثابت أن القرآن نزل على النبي محمد ﷺ مفرقاً في نحو ثلاث وعشرين سنة ابتداءً من بلوغ النبي ﷺ سن الأربعين[1] حتى قرب وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى[2].

فكانت الآيات تـــنزل جواباً لمستخبر أو إثر حادثة وقعت، فالأول كقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[3] والثاني كقوله تعالى:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾[4] والمقصود من التنجيم المذكور هو: تفريق آيات القرآن الكريم وتقسيمها حال نزولها على النبي ﷺ إلى نوبات وأقسام مختلفة طولاً وقصراً من سورة بأكملها[5] إلى عدة آيات، قد تكثر حتى تصل إلى العشر، وقد تقلّ حتى تصل إلى آية واحدة أو بعض آية[6].

دليل التنجيم: قوله تعالى:﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[7] وسُمِّي المقدار النازل من القرآن في النوبة الواحدة نجماً تشبيهاً له بنجوم السماء في الرفعة والإضاءة، وتنزيهاً لكلام الله تعالى من الوصف بالتفريق ولو في اللفظ والعبارة.

1 – في 17 من رمضان سنة 41 من مولده ﷺ.
2 – في 9 من ذي الحجة سنة 63 من مولده عليه الصلاة والسلام.
3 – نزلت حين سأل المسلمون رسول ﷺ في شأن غنائم بدر: كيف تقسم ولمن الحكم فيها أهي للمهاجرين أم للأنصار، أم لهم جميعاً.
4 – نزلت إثر حادثة وقوف النبي ﷺ: على الصفا وقوله للمشركين إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، وقول أبي لهب: تباً لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة.
5 – كسورة الفاتحة والعشرة كالآيات التي نزلت في شأن حادثة الإفك.
6 – روى أن قوله تعالى:﴿ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ ﴾ نزل مستقلا وهو بعض آية 95 من سورة النساء.
7 – الآية 106 من سورة الإسراء.

حِكَم التنجيم وأسراره:-

علمنا فيما سلف أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى جملة واحدة، وكذلك نزل إلى السماء الدنيا موافقة للكتب السماوية السابقة، وأما نزوله على النبي ﷺ فقد كان مفرقاً وموزعاً حسب الحوادث والمناسبات، فأثار هذا اعتراض الكفرة من يهود ومشركين، وهو ما حكاه الله عنهم وأجاب عنه وأبان الحكمة من نزوله منجماً، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[1] هذا وقد أسهب بعض العلماء في بيان حكم هذا التنجيم وأسراره، وفي الأسطر التالية بيان مجمل لهذه الحكم والأسرار:-

1- تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه وإشعاره بأن الله دائماً في جانبه ويتجلى هذا في الآتي:-

أ – لما في التنجيم من تجديد للوحي وتكرير لنزول الملك، وفي هذا تسلية له ﷺ وإدخال السرور على قلبه الشريف، وإزالة لما يلحقه من الأذى من صدود المشركين وعنادهم، فكلما اشتد عليه هذا الأذى سلاه ربه وخفف عنه، تارة بقصص إخوانه الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى:﴿ وَكُـلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[2] وطوراً بوعده بالنصر والتأييد، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾[3]

1 - الآيتان 32 و 33 من سورة الفرقان.
2 - الآية 120 من سورة هود.
3 - الآيتان 171-172 من سورة الصافات.

وقوله:﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1]، وأحياناً بالوعيد لأعدائه الكفرة بالهزيمة والخذلان، بمثل قوله تعالى:﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[2]

ب- لما في التنجيم من تيسير حفظ القرآن وتسهيل فهمه له ﷺ، وفي كل مرة من مرات نزول القرآن معجزة جديدة تؤيده، وتشد من أزره وتصدقه في كل ما جاء به عن ربه من هداية وإرشاد.

2- التدرج في تربية الأمة الإسلامية الناشئة علماً وعملاً، زيادة على تثبيتهم وشد أزرهم وإشعارهم بالنصر والتأييد، ويمكن توضيح هذه الحكمة بالنقاط التالية:-

أ – بتنجيم نزول القرآن يتيسر حفظه ويسهل فهمه على أفراد الأمة، خصوصاً وهم في أول أمرهم تغلب عليهم الأمية وليست لديهم أدوات الكتابة والتسجيل بالقدر الكافي.

ب- التمهيد لتخليهم عن الرذائل والعادات الممقوتة، فكلما نجح القرآن في هدم باطل من أباطيل المشركين انتقل إلى آخر، وهكذا حتى طهّر الأمة الإسلامية من أرجاس الجاهلية والناس لا يشعرون بإرهاق أو ملل، وهذا هو الطريق السديد في تربية أمة عنيدة تتعصب لموروثاتها من العادات والتقاليد.

جـ- التدرج في تحليتهم بالفضائل وغرس العقائد الحقة والعبادات الصحيحة في قلوبهم، فالتشريعات الجديدة المخالفة لما عليه الناس، والتدرج في إلزامها لهم حتى تتقبلها النفوس بقبول حسن.

ففي القرآن الكريم، تشريعات كثيرة نزلت في فترات نفسية مناسبة لتتمشى مع عادات البشر وطبائعهم[3]، فلو أنها نزلت دفعة واحدة لشعر الناس بثقلها، فالمصلح لا ينبغي أن يظهر تشريعات حتى يهيئ الجو لها، كما وقع في القرآن الكريم.

---

[1] – الآية 48 من سورة الطور.

[2] – الآية 45 من سورة القمر.

[3] – أي من حيث تدرجها في النزول لا في الحكم.

3- مسايرة الحوادث في تجددها والمناسبات في تعاقبها، فكلما جد جديد من الحوادث والمشاكل جاءت الآيات الكريمة بالحل المناسب، فكثيراً ما نجد في القرآن إفحاماً للمشركين في جدالهم مع النبي ﷺ وإجابة للمسلمين عن أسئلتهم وبياناً لحكم الله تعالى في قضايا ووقائع حدثت في حينها كما في حادثة فداء أسرى بدر، وحادثة مظاهرة أوس بن الصامت من زوجته خولة بنت ثعلبة، ونحو ذلك.

4- الإشارة إلى مصدر القرآن الكريم، فالتنجيم يدل على أنه من عند الله تعالى، وذلك لأنه مع نزوله مفرقاً تجده متناسق الألفاظ، محكم الأسلوب، منسجم النظم والتركيب، معجزاً للخلق أجمعين من هذه الناحية[1]، فلو كان من عند غير الله – وجاء مفرقاً– لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ولا يتحقق هذا النوع من الإعجاز لو نزل القرآن جملة.

5- تحقق النسخ بين آيات القرآن الكريم، فقد شاءت حكمة الله أن تنسخ تلاوة بعض الآيات أو حكمها أو هما معاً، تسهيلاً على الأمة أو تدرجاً بهم من السهولة إلى الصعوبة، وهذه الحكمة لا تتأتى لو نزل القرآن جملة واحدة.

المكي والمدني من القرآن ومميزات كل منهما وفوائد العلم بهما:–

من المباحث المهمة في علوم القرآن معرفة المكي والمدني من القرآن الكريم وإدراك الفرق بينهما، وفائدتها[2] يجدر بطالب التفسير الاطلاع عليها والأخذ بها، إذ هي من الوسائل التي تعينه على فهم الآيات فهماً صحيحاً متمشياً مع ظروف نزولها وملابساته ومع معرفة المخاطبين بها إبان نزولها، وتوصف السورة بكونها مكية أو مدنية تبعاً لنزول

---

[1] – أي زيادة على ما له من نواحي الإعجاز الأخرى المعروفة.

[2] – أي فائدة معرفة المكي والمدني.

أغلبية ما ذكر فيها من آيات أو لفاتحتها، فقد ورد أن فاتحة السورة إذا نزلت في مكة أو قبل الهجرة كتبت تلك السورة مكية وإن تخللتها آيات مدنية، وكذلك إذا نزلت فاتحة السورة في المدينة أو بعد الهجرة كتبت مدنية وإن تخللتها آيات مكية، ثم تستثنى[1] تلك الآيات المخالفة للأغلبية أو للفاتحة فيقال مثلاً: سورة كذا مكية إلا آية كذا وكذا، هذا ولعلماء هذا الفن اصطلاحات في التعريف بالمكي والمدني من القرآن، نجملها فيما يلي:-

اصطلاحات العلماء في المراد بالمكي والمدني:-

وضع العلماء اصطلاحات ثلاثة للتعريف بهذين الوصفين ولبيان الفرق بينهما، وذلك باعتبارات مختلفة، فبينما جعله بعضهم باعتبار المكان، اعتبره آخرون بحسب الزمان، وقال فريق ثالث: أنه باعتبار المخاطب أو أسلوب الخطاب، وإليكم التفصيل:-

أ – الاصطلاح الأول

أن المكي ما نـــزل من القرآن بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نـــزل في المدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد وسلع[2].

وهذا الاصطلاح على الرغم من أنه المتبادر إلى الذهن من اللفظ، إلا أن العلماء لاحظوا عليه وانتقدوه بأنه غير شامل وتثبت بمقتضاه الواسطة، إذ أن هناك من الآيات ما لم تنـــزل في مكة ولا في المدينة ولا في ضواحيهما[3] كالنازلة في الأسفار وبيت المقدس

---

1 – أغلب السور لم يقع فيها استثناء ووقع في البعض وهو حوالي بضع وأربعين سورة وأغلبه آيات مدنية جعلت في سورة مكية، وأما عكسه وهو: آيات مكية جعلت في سورة مدنية فقليل.

2 – سَلع بفتح السين المهملة: جبل بسوق المدينة المنورة.

3 – وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾، آية 13 من سورة محمد، نزلت في الطريق أثناء الهجرة، وقوله تعالى: ﴿ لَوْ

وتبوك، وهو أيضاً مخالف للحديث الذي رواه أبو أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة، مكة والمدينة والشام[1].

ب- الاصطلاح الثاني

أما الذين اعتبروه بحسب الأسلوب فقالوا: إن المكي ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة ولعله مأخوذ من الحديث المروي عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه والذي يقول: كل شيء نزل فيه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فهو بمكة – وذلك لأن الكفر غالب فيهم[2] – وكل شيء نزل فيه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ فهو بالمدينة، وذلك لأن الإيمان غالب فيهم، وهذا الرأي أيضاً كسابقه تلزمه الواسطة فلا يكون شاملاً بل هي هنا أكثر، فإن العديد من السور لم تصدَّر بهاتين الآيتين ولم تكن خطاباً خاصاً بأهل المدينة ولا مكة، كما يرد عليه أيضاً أن من السور المكية ما ورد فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ مثل سورة الحج[3]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا... ﴾ الآية[4]، وإن من السور المدنية ما ورد فيها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مثل سورة البقرة قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾[5].

كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، آية 42 من سورة التوبة، نزلت في تبوك، وقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ، آية 45 الزخرف، نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

1 – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، جـ1، ص23.

2 – حديث مرسل، وفي بعض الروايات أسند إلى سيدنا عبد الله بن مسعود، رواه الحاكم في المستدرك.

3 – هذا على غير المشهور، وأما على المشهور فإن سورة الحج مدنية وصدرت بيأيها الناس.

4 – الآية 77.

5 – الآية 21.

جـ- الاصطلاح الثالث

وهو القائل بأن الفرق بين النوعين بحسب الزمان، وعليه فالمكي: ما نزل من القرآن قبل الهجرة وإن كان نزوله خارج مكة وضواحيها كالآية التي نزلت ببيت المقدس.

والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن وقع نزوله بمكة أو منى أو عرفات، وتحدّ الهجرة، بوصوله ﷺ إلى المدينة في غرة ربيع الأول سنة 54 من مولده عليه الصلاة والسلام[1]، وهـذا الرأي هو أشمل الآراء وأصـحها، فيكون هو المناسب وقد أخذ به كثير من العلماء ورجّحوه.

مميزات المكي والمدني من القرآن:-

من المعلوم أن الهجرة النبوية الشريفة تعتبر تاريخياً حداً فاصلاً بين عهدين متمايزين، كذلك هي أيضاً تعتبر بالنسبة للقرآن الكريم حداً فاصلاً بين أسلوبين متمايزين يمكن للقارئ المتدبر إدراك الفرق بينهما، وذلك لأن القرآن أنزل لمخاطبة الناس الملتفين حول الرسول ﷺ سواء في مكة أو المدينة أولاً وبالذات وإن كانت خطاباته في النهاية عامة شاملة، فبينما كانت الآيات الكريمة في مكة تخاطب أناساً اشتهروا بالشرك وعبادة الأوثان والتشبث بالتقاليد والعادات الموروثة، نجدها في المدينة تنزل على قوم لهم حظ من الكتاب الأول مع ملاحظة انتشار الإسلام بين ربوع المدينة واستقرار أمره هناك، فمن

---

1 - وكان خروجه ﷺ من مكة يوم 17 صفر سنة 54 من ميلاده، وانتقل إلى الرفيق الأعلى في 9 من ذي الحجة سنة 63 من ميلاده عليه الصلاة والسلام الموافق سنة 10 من الهجرة، وقد علمنا أن بدء الوحي كان في 17 من رمضان سنة 41 من ميلاده عليه الصلاة والسلام، فتكون مدة العهد المكي 12 سنة وخمسة شهور و13 يوما، ومدة العهد المدني 9 سنين و9 شهور و 9 أيام، ومجموع ما نزل في مكة من الآيات: 4780 في 91 سورة، ومجموع ما نزل بالمدينة من الآيات: 1456 في 23 سورة أ.هـ. من مناهل العرفان، جـ1، ص45 فتكون آيات القرآن جميعا 6236 آية، وهو عد الكوفيين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الطبيعي إذاً أن يتغير أسلوب القرآن وتظهر له أهداف أخرى وموضوعات جديدة. هذا مع العلم بأن معرفة المكي والمدني لم ينقل فيها عن النبي ﷺ شيء، وإنما المعول عليه فيه هو النقل عن الصحابة والتابعين، وقد وقع خلاف بينهم في بعضها وخصوصاً في المكي[1]، لذلك أضاف علماء هذا الفن إلى النقل ضوابط ومميزات يمكن عن طريقها معرفة الفرق بين المكي والمدني، وهي بمثابة قياس تعرض عليه الآيات القرآنية فيتبين به الفرق بين النوعين، وفي الأسطر التالية بيان مجمل لهذه المميزات.

أ – مميزات المكي، فهو يمتاز بما يلي:-

1- ببيان أصول العقائد من الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة واختصاصه بالألوهية، وإلى الإقرار بالرسالة والبعث والجزاء والحث على مكارم الأخلاق.

2- بقصر السور والآيات غالباً، لأن الإيجاز يناسب أهل مكة المشهورين بالفصاحة والبلاغة، فبينما نجد مثلاً الجزء الثلاثين المكي تبلغ آياته 550 آية نجد مثله في المدني، وهو الجزء الثامن والعشرون لا تبلغ آياته إلا 136 آية.

3- بمناقشة المشركين في عقائدهم، وإبطالها وذمها مثل عبادتهم للأوثان وادعائهم لله ولداً ووأدهم البنات، ونحو ذلك.

4- بالتحدث عن الأمم الماضية والأنبياء والرسل السابقين، وما لحقهم في سبيل دعواتهم من الأذى والعنت، بما في ذلك ما جاء عن قصة آدم وإبليس سوى سورة البقرة.

5- بالافتتاح بحروف التهجي المقطعة[2] سوى سورتي البقرة وآل عمران.

---

[1]– السور المدنية باتفاق عشرون، وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقون والطلاق والتحريم والنصر، والسور المختلف فيها اثنتا عشرة سورة، وهي: الفاتحة والرعد والحج والرحمن والصف والتغابن والمطففين والقدر، ولم يكن والإخلاص والمعوذتان، والباقي وهو اثنتان وثمانون سورة مكية باتفاق.

[2] – أي المفردة التي ينطق بأسمائها لا مسمياتها.

6- جميع السور المبدوءة بالقسم.

7- كل السور المشتملة على سجدة من سجود التلاوة.

8- كل سورة فيها (كلا).

9- أغلب سور المفصل.

ب- مميزات المدني، وأما المدني فيمتاز بالآتي:-

1- بالبحث في المجالات العملية كالعبادات والحدود والفرائض.

2- بالإطناب في الخطاب وطول السور والآيات غالباً.

3- بذكر النفاق والمنافقين ومناقشتهم وإرشاد النبي ﷺ إلى دسائسهم ضد الإسلام والمسلمين.

4- بمجادلة أهل الكتاب وإرشادهم إلى محاسن الإسلام وسماحته والنعي عليهم تحريفهم لكتب الله السالفة.

الفائدة من العلم بالمكي والمدني:-

لمعرفة المكي والمدني من القرآن الكريم والتمييز بينهما فائدة عظيمة وغاية جليلة سامية، ذلك لأنها:-

أ. تعيننا على فهم النصوص القرآنية فهماً صحيحاً، فمن طريقها نستطيع تمييز الناسخ والمنسوخ، وذلك فيما إذا وجدنا آيتين في حكم واحد، وكانت إحداهما تخالف الأخرى في بيانه، حكمنا بأن المدنية ناسخة للمكية، مع مراعاة شروط معينة.

ب. من معرفة المكي من المدني نفهم من هم المخاطبون بالآيات القرآنية الكريمة إبّان نزولها، ونتبين البيئة والظروف المصاحبة لهذا النزول.

ج. ما نلمسه من خلال معرفتنا بالمكي والمدني من عناية الله الفائقة بالأمة الإسلامية ولطفه بها، حيث لم يترل عليهم التكاليف دفعة واحدة، وإنما أنزلها في فترات من الزمن، الأمر الذي يظهر لنا سمو السياسة الإسلامية ويسرها وسهولة الأخذ بها.

د. وأخيراً، نرى ضمن ما عرفناه في هذا الموضوع مدى عناية المسلمين الفائقة في الصدر الأول ومثابرتهم على حفظ القرآن الكريم، حتى أنهم ليعرفون ويتناقلون ما نزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة، وما نزل في الطريق بينهما وفي غيرهما، وما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل سفراً وما نزل حضراً، وما نزل في الصيف أو في الشتاء، وما نزل ليلاً أو نهاراً، إلى غير ذلك، ويكفينا في هذا ما نقل عن سيدنا عبد الله بن مسعود من قوله: (والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، وما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه). وروى ما يقرب من هذا عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الأسئلة

س1- لماذا اعتبر العلماء مبحث نزول القرآن وجهاته من المباحث المهمة؟ مؤيداً إجابتك بكلام بعض العلماء مبيناً معنى التزول لغة؟ والمراد به بالنسبة لتزول القرآن؟ وما الحكمة من التعبير عن الإعلام بالقرآن بلفظ التزول؟

س2- اذكر تتزلات القرآن أو مرات نزوله مبيناً الحكمة من كل تتزل ودليله من القرآن؟ وكيف تلقى جبريل عليه السلام القرآن عن المولى عز وجل؟ وكيف أخذه النبي ﷺ عن جبريل؟ وهل الذي نزل به جبريل اللفظ أو المعنى أو هما معاً مستدلاً على ما تذكر؟

س3- ما المقصود من تنجيم نزول القرآن؟ وما دليله من الآيات القرآنية؟ وكم المدة التي تم فيها نزول جميع آيات القرآن؟ وما الحكمة من تنجيم نزول القرآن على الرسول ﷺ مبيناً كيفية تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام بالتنجيم في صورتيها؟ والحكمة الثانية وهي تربية الأمة بصورها الثلاث؟

س4- ما أهمية معرفة المكي والمدني من القرآن؟ ومتى توصف السورة من القرآن بأنها مكية أو مدنية مبيناً اصطلاحات العلماء في المراد من المكي والمدني وأي الاصطلاحات أرجح في ذلك؟

س5- يمتاز القرآن المكي عن المدني بخصائص ينفرد بها وعلامات تدل عليه، أذكر هذه الخصائص والعلامات؟

س6- ينفرد القرآن المدني بخصائص وعلامات تميزه عن المكي، أذكر هذه الخصائص ثم بين الفائدة من معرفة المكي والمدني من القرآن؟

المبحث الثالث

نزول القرآن على سبعة أحرف

تمهيد في أهمية المبحث:-

ترجع أهميته إلى أنه يرينا مظهراً رائعاً من مظاهر رحمة الله تعالى وتخفيفه عبى عباده وتيسيره لكتابه الخاتم على كافة القبائل العربية بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية[1].

فقد كان للعرب قبل نزول القرآن لهجات متعددة تنبع من طبيعة فطرهم تعرضت لها كتب الأدب بالبيان والمقارنة وكان لكل قبيلة منهم من اللحن بالقول في كثير من الكلمات ما ليس للآخرين، وتختلف في كيفية النطق وطرق الأداء من تفخيم وترقيق وإمالة وإدغام وإظهار إلى غير ذلك من أوجه الاختلاف، وقد نشأت هذه اللهجات نتيجة انعزال تلك القبائل بعضها عن بعض وتمسُّك كل قبيلة بتقاليدها وعاداها، ونشوب الغارات فيما بينها، مما أدى إلى تباعدها وتفرقها، وكانت للغة قريش ولهجاها الصدارة بين بقية فروع اللغة العربية ولهجاها لما لها من جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ولغتها، أي لغة قريش هي التي تواضع عليها العرب وألفوها وصارت اللغة النموذجية في الأمور الجدية ولغة الشعر والخطابة، وهي اللغة التي نشأت في مكة بلد البيت الحرام المعظم عند جميع قبائل العرب إلى جوار اللغات الأخرى الشائعة بين العرب في مختلف قبائلهم، لذا كان من الطبيعي أن يترل القرآن بلغة قريش على الرسول القرشي ويتسع في نزوله ليشتمل على سبعة أحرف تأليفاً للعرب وتحقيقاً للإعجاز فيسمح أن يقرأ بما يتمشى مع معظم تلك اللهجات المتعددة والمتفاوتة في تأدية المعنى الواحد أو المعاني بوجه من وجوه التفاوت الموجودة في القرآن العربي الموحي به إلى الرسول العربي محمد ﷺ ويكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعاً بحروفه وأوجه قراءاته للخالص من تلك

[1] – مناهل العرفان في علوم القرآن، جـ1، ص137.

اللهجات، وذلك مما ييسر على العرب جميعاً القراءة والحفظ والفهم للقرآن الكريم[1]، وهذا كله يتحقق بنزوله مشتملاً على الأحرف السبعة المنوه بها، وسأتناول في هذا المبحث النقاط التالية:-

1- معنى الحرف لغة وبيان إطلاقاته والمراد منه في علوم القرآن.

2- أهم أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف.

3- بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وخلاف العلماء فيه، وبيان المرجح من الأقوال وأرجحها ودليل ترجيحه.

4- هل المراد من السبعة في الحديث حقيقة العدد أو المراد التَوْسِعَة على الأمة والعدد لا مفهوم له؟

5- بيان الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف.

6- هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن باقية إلى الآن أو لا؟

وفيما يلي تفصيل لهذه النقاط:-

أولاً:- معنى الحرف لغة وإطلاقاته المختلفة

يطلق الحرف في اللغة العربية، ويراد منه عدة معان منها:-

أ – أحد حروف الهجاء التي أولها الألف وآخرها الياء، قال في اللسان الحرف في الأصل الطرف والجانب، وبه سمى الحرف من حروف الهجاء[2].

---

1 – من مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص156 بتصرف.

2 – لسان العرب لأبن منظور، جـ10، ص386.

ب- الكلمة عند النحويين قسيمة الاسم والفعل، وهذا المعنى هو الذي عناه صاحب اللسان بالأداة، فقال: والحرف الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل، كعن وعلى[1].

ج- طرف الشيء وحافته، قال: صاحب القاموس الحرف من كل شيء طرفه وشفيره وحدّه ومن الجبل أعلاه[2].

د – يطلق الحرف ويراد منه المعنى والجهة أو القراءة، والوجه أما الأول فقد نقله الزركشي في البرهان عن أبي جعفر محمد بن سعدون النحوي[3] فقال: والحرف أيضاً المعنى والجهة، وأما الثاني فقد حكاه عن الخليل بن أحمد قائلاً: والحرف ها هنا القراءة[4] وفي اللسان: وكل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفاً تقول هذا في حرف ابن مسعود أي في قراءة ابن مسعود[5] ابن سيده: والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه.

ومن هذا البيان يمكن أن أقول: إن الحرف مشترك لفظي[6] لا يتعين معناه المراد هنا إلا بقرينة تعينه، ومن المستبعد إرادة أحد حروف الهجاء أو الكلمة لتعددها كثيراً في القرآن، وكذلك لا يسوغ أن يكون بمعنى طرف الشيء وحافته لبعده عن المعنى المقصود في الأحاديث المروية، وإذا انتفت هذه الاحتمالات الثلاثة يتعين أن يكون المراد هو المعنى

---

1 – نفس المصدر السابق، ص385.

2 – القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز أبادي، جـ3، ص130، والبصائر، جـ1، ص453.

3 – هو أحد القراء وكان يقرأ بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه قراءة نسبت إليه، توفي سنة 231هـ، البرهان للزركشي، جـ1، ص213 هامش (2).

4 – البرهان للزركشي، جـ1، ص214.

5 – جـ 10، ص385.

6 – انظر روح المعاني للألوسي، جـ1، ص20، وهامش (2) فيها.

الرابع والأخير، وهو الوجه أو القراءة وهو أنسبها وأقربها إلى المعنى الاصطلاحي الآتي بيانه في الفقرة الثالثة من التفصيل والإيضاح.

ثانياً:- أهم أدلة نـــزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى إثبات هذه القضية والاستدلال عليها إلا بما يصح نقله عن رسول الله ﷺ ، وقد وردت أحاديث كثيرة رواها الثقاة عن واحد وعشرين من الصحابة[1]، حتى قال بعض العلماء[2] بأن حديث نـــزول القرآن على سبعة أحرف متواتر، وفيما يلي ذكر لأهم الأحاديث الصحيحة في هذه المسألة:-

1- عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف[3].

2- إن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة الرسول ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فانتظرت حتى سلم ثم لببته بردائه أو بردائي فقلت من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت له كذبت، فوالله أن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على

---

[1] – وهم عمر وعثمان وابن عباس وابن مسعود وأنس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وأبو هريرة وهشام بن حكيم ومعاذ بن جبل وأبو بكر وأبو جهم وأبو سعيد الخدري وأبو طلحة الأنصاري وأم أيوب وحذيفة وزيد بن أرقم وسمرة بن جندب وسلمان بن صرد وعمر بن أبي سلمة رضي الله عنهم أجميعن، روح المعاني، ج1، ص20، هامش (1).

[2] – وهو أبو عبيدة القاسم بن سلام وهو تواتر معنوي كما بينه السيوطي في تدريب الراوي، ص374، ط1، بالمكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

[3] – رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام، فقرأ هشام هذه القراءة التي سمعته يقرأها، قال رسول الله ﷺ هكذا أنزلت، ثم قال رسول الله ﷺ: إن هذا القرآن أنـــزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه[1].

3- عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان عند أضاة[2] بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على حرف فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتي لا تطيق ذلك ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على حرفين، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على ثلاثة أحرف فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتُك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا[3].

4- عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقرآ فحسن النبي ﷺ شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب [4]، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأي رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأنما انظر إلى الله عز وجل فرقاً، فقال لي: يا أبي أرسل

---

1 – رواه مسلم والبخاري، واللفظ له، جـــ6، ص239.

2 – الأضاة كحصاة بفتح الهمزة الغدير الصغير أو مسيل الماء إليه موضع قريب من مكة فوق سرف، وغفار قبيلة من كنانه القرطبي، ج1، ص41 أهـــ.

3 – رواه مسلم بسنده في صحيحه.

4 – أي أن الشيطان ألقى إليه من وساوس ما شوش عليه حاله حين رأي النبي ﷺ حسّن القراءتين وصوبهما على ما بينهما من اختلاف وهما في سورة واحدة، هـــ المناهل، جـــ1، ص 141.

إلى أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتي فرد إلى الثانية أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلى الثالثة أقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتما مسألة تسألنيها، فقلت اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ [1].

5- عن أبي كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة قال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبيرة والغلام، فقال: فمرهم فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف[2].

هذه الأحاديث الخمسة تعتبر من أصح ما روى في أدلة نـــزول القرآن على سبعة أحرف ذكرها الزرقاني في المناهل وزاد عليها ستة أخرى[3]، وأورد الإمام أبو جعفر الطبري أحاديث أخرى في تفسيره جامع البيان[4] كلها صريحة في هذا المعنى بقي علينا أن نعرف المعنى المراد من الأحرف السبعة التي نـــزل بها القرآن وهو ما تكفلت ببيانه الفقرة التالية:-

ثالثاً:- بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وخلاف العلماء فيه

هذه أطول الفقرات في هذا الموضوع وأدقها وأصعبها لكثرة ما حدث فيها من خلاف وأقوال للعلماء حتى وصلت في بيان المراد من الأحرف إلى ما يقرب من 40

1 – رواه الإمام مسلم في صحيحه.
2 – رواه الإمام الترمذي وقال حسن صحيح.
3 – مناهل العرفان، جـ1، ص139 وما بعدها.
4 – جامع البيان للطبري، جـ1، ص18-19.

أربعين قولاً[1]، ولهذا فإنني سأقتصر على ذكر أهم الآراء المرجحة عند بعض العلماء وقبل بيانها أحب أن أقدم أصولاً خمسة تعين على فهم المراد، وهي مأخوذة من مجموع الأحاديث المروية، وينبغي أخذها بعين الاعتبار عند تقدير كل قول من الأقوال الآتية والحكم عليه بالقبول وترجيحه، وهذه الأصول، هي:-

1- أن الإلزام بقراءة القرآن على حرف واحد في أول الأمر فيه حرج ومشقة على الأمة لاختلاف لهجاتها ولغاتها كما سلف، ولضعف مرونة ألسنتها لكونها أمة أمية وفيها العجوز الذي لا يقدر على النطق بما لا يعهد وفيها الجارية والغلام.

2- أن المقصود من الزيادة إلى سبعة أحرف هو تيسير القراءة وتسهيل النطق والفهم.

3- أن الأمة كانت مخيرة في القراءة بأي حرف من هذه الأحرف السبعة غير ملزمة بحرف خاص منها.

4- أن الصحابة كانوا يقرأون قراءات مختلفة حتى استنكر بعضهم قراءة البعض الآخر واحتكموا إلى رسول الله ﷺ.

5- أن النبي ﷺ صوّب قراءة كل منهم وأقرهم على قراءاتهم، وأنه هو الذي أقرأهم إياها، وأن كل قراءة منــزلة من عند الله تعالى[2].

وبعد بيان هذه الأصول اذكر الآراء المرجحة في المراد بالأحرف السبعة في الحديث، فأقول:-

---

[1] - ذكرها السيوطي في الإتقان، جـ1، ص45.

[2] - انظر: اللآلىء الحسان في علوم القرآن للشيخ موسى شاهين، ص126.

الرأي الأول:-

مروي عن شيخ المفسرين الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره، وهو: أن المراد بالأحرف لغات سبع في كلمة واحدة ومعنى واحد أو معان متفقة أو متقاربة عبر عنها[1] بألفاظ مختلفة كقولك في التعبير عن طلب الإقبال هلمّ وأقبل وتعال، و إليّ وقصدي ونحوي وقربي واختلف القائلون بهذا الرأي في تحديد اللغات السبع التي نزل بها القرآن، فقيل هي لغات قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن، وقيل: نزل بلغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر.

وأختار هذا الرأي الطحاوي[2]، وابن عبد البر وابن العربي، وبعض أهل الفقه والحديث منهم سفيان بن عيينة وابن وهب، ورجحه الشيخ مناع القطان[3]، وقال الشيخ موسى شاهين بعد ذكر هذا الرأي: ويستدل له بقراءة أبي بن كعب إذْ كان يقرأ[4] ﴿كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾[5] مرُّوا فيه – سعوا فيه. وبما جاء في قراءة ابن مسعود ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[6]، أمهلونا – أخرونا – ارقبونا ﴿بدلاً من انظرونا﴾ ثم قال: ويلزم أصحاب هذا الرأي أن يقولوا عن

---

1 – بمعنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منزلاً بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد أو المعاني المتقاربة أو المتفقة، وحيث لا يكون هناك اختلاف يأتي بلفظ واحد، أ. هـ. مناع القطان، ص158 في مباحثه.

2 – هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، فقيه حنفي انتهت إليه رئاسة الفقه الحنفي بمصر في زمنه، توفي سنة 321 أ.هـ، شذرات الذهب، جـ2، ص288.

3 – انظر مباحث في علوم القرآن له، ص162.

4 – والمقصود قبل العرضة الأخيرة كما يأتي.

5 – البقرة، آية 20.

6 – الآية 13، من سورة الحديد.

هذه الأوجه: إنما كانت جائزة في أول الأمر ثم نسخت إلا وجها وهو الثابت في العرضة الأخيرة، وهي التي كتب عليها عثمان مصاحفه[1].

وقال الطحاوي معلقاً على هذا الرأي: وإنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة واتقان الحفظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ[2]، وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بعد ذكره لهذا الرأي والقائلين به ومصرحاً بنسخ الأحاديث ونسخها ما نصه، قالوا: وكان ذلك رخصة في صدر الإسلام أباح الله للعرب أن يقرأوا القرآن بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها، ثم نسخ ذلك بحمل الناس على لغة قريش، لأنها التي بها نزل القرآن وزوال العذر لكثرة الحفظ وتيسير الكتابة، وقال ابن العربي: دامت الرخصة مدة حياة النبي عليه السلام، وظاهر كلامه أن ذلك نسخ بعد وفاة رسول الله ﷺ.

فإما نُسخ بإجماع الصحابة أو بوصاية من النبي ﷺ.

واستدلوا على ذلك:-

أ. بقول عمر: القرآن نزل بلغة قريش

ب. بنهيه عبد الله بن مسعود أن يقرأ: فتول عنهم عتّي حين، وهي لغة هذيل في حتى.

ج. وبقول عثمان لكتاب المصاحف: فإذا اختلفتم في حرف فاكتبوه بلغة قريش فإنما نزل بلسانهم[3].

---

1 – اللآلئ الحسان، ص130.

2 – الإتقان للسيوطي، جـ1، ص134-135.

3 – التحرير والتنوير، جـ1، ص50، والإتقان، جـ1، ص169.

الرأي الثاني:–

قال به أبو عبيدة القاسم بن سلام، وهو أن المراد بالأحرف سبعة لغات من لغات العرب متفرقة في القرآن كله نزل بها في جملته بحيث لا يخرج عن سبع لغات من لغات أفصح العرب بمعنى أن بعض معاني القرآن عُبِر عنه بلفظ من لغة قريش وبعضها عُبر عنه بلغة اليمن، وبعضها بلغة هذيل، وهكذا حسب الأفصح والأوجز في اللفظ، وهذا لا يمنع من كون القرآن نزل بلغة قريش[1]، لأن أغلبه وأكثره نزل بلغة قريش والألفاظ الممثلة للغات أهم القبائل العربية الأخرى قليلة جداً[2].

وهذا الرأي مختلف عن الذي قبله لأنه يعني أن الأحرف السبعة إنما هي أحرف أي لغات سبعة متفرقة في سور القرآن لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة مع اتفاق المعاني، كما في الأول قال أبو عبيدة: ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع مفرقة فيه[3].

وهذا الرأي، أعني الثاني اختاره الأزهري في التهذيب وابن عطية في تفسيره، وصححه البيهقي في الشعب[4].

الرأي الثالث:–أن المراد من الأحرف السبعة الأوجه التي يقع أو وقع بها الاختلاف والتغاير بين أفصح لغات العرب، وهو منسوب إلى عدد من العلماء

---

1 – لما روى عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه من قوله للقرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فلأنه إنما أنزل بلسانهم، الإتقان، جـ1، ص169.

2 – اللآلئ الحسان، ص128.

3 – الإتقان للسيوطي، جـ1، ص135.

4 – المصدر السابق، ونفس الصفحة.

5– هو الإمام ابن شاذان الرازي المتوفي في حدود سنة 290 هـ، (النشر 1 / 179)، صبحي الصالح، ص115.

منهم:أبوالفضل الرازي[1]، وابن قتيبة[2]، وابن الجزري، والقاضي أبو بكر بن الطيب[3]. على اختلاف بينهم في التعبير عنه[4]، وتلك الأوجه التي ذكروها وهي على سبيل الإجمال كما يلي:-

1- اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.

2- اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ إلى مضارع إلى أمر.

3- اختلاف وجوه الإعراب من رفع إلى نصب إلى خفض إلى جزم.

4- الاختلاف بالنقص أو الزيادة.

5- الاختلاف بالتقديم والتأخير.

6- الاختلاف بالإبدال.

7- اختلاف اللغات أي اللهجات بالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام، ونحو ذلك، وقد ذكر القائلون بهذا الرأي أمثلة من القرآن الكريم لكل وجه منها، وهي كما يلي:-

المثال الأول:-

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾[5]، قرئ لأمانتهم بالإفراد.

1- هو الإمام ابن شاذان الرازي المتوفي في حدود سنة 290 هـ، (النشر 1 / 179)، صبحي الصالح، ص115.

2- هو عبد الله بن مسلم الدينوري من المصنفين المكثرين، توفي سنة 276، هـ الإعلام، جـ4، ص137.

3 – هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني من كبار علماء الكلام ومؤلف إعجاز القرآن، توفي سنة 403هـ، الإعلام جـ6، ص176.

4 – انظر مناهل العرفان، جـ1، ص158.

5 – سورة المؤمنون، الآية 8، وقد رسمت في المصحف بالإفراد بدون ألف بعد الميم والنون.

المثال الثاني:-

قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[1]، بصيغة الدعاء في الفعل باعد وقرئ بصيغة الماضي المضاعف بعّد.

المثال الثالث:-

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ﴾[2]، بفتح الراء، وقرئ بضمها: ولا يضارُّ.

المثال الرابع:-

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾[3]، قرئ بزيادة من قبل الظرف أي تجري من تحتها الأنهار.

المثال الخامس:-

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[4]، قرئ بتقديم الفعل المبني للمجهول أي فَيُقتَلونَ ويَقتُلون.

المثال السادس:-

قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[5]، قرئ: كالصوف المنفوش.

---

[1] – سورة سبأ، الآية 19، وقراءتها بالماضي المضاعف وبصيغة الخبر ليعقوب.

[2] – سورة البقرة، آية 282.

[3] – سورة التوبة، الآية 100، والقراءتان في هذه الآية متواترتان.

[4] – سورة التوبة، الآية111، فالقراءة الأولى تفيد أن المؤمنين يسرعون إلى قتل الأعداء، والثانية تفيد أنهم يتلهفون إلى ساحة المعركة لعل الله يمنحهم الشهادة.

[5] – سورة القارعة، الآية5، وفي القراءتين تقارب في المخارج بين الكلمتين يسمح بالتناوب بينهما.

المثال السابع:-

قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[2] قرأت الآيتان بإمالة أتى وموسى وبلى نحو الكسر، وقوله تعالى: ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ بترقيق الرائين، وقوله تعالى: ﴿الصلاة والطلاق ﴾ بتفخيم اللامين فيهما في جميع القرآن.

هذه الأوجه السبعة التي ذكرها أصحاب الرأي الأخير هي المرادة في الحديث، وهي التي وسع الله بها على الأمة فبأي وجه منها قرأ القارئ أصاب، ولقد كاد النبي ﷺ يصرح بها كل التصريح في الحديث الأول الذي رواه البخاري[3]، وفيه يقول ﷺ: أقرأني جبريل على حرف فلم أزل استزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف.

أرجح الآراء في المراد من الأحرف:-

من هنا وبناء على ما تقدم في بداية هذه الفقرة والتي قبلها من الأحاديث والأصول الخمسة التي صدرت بها يمكنني أن أقول: إن هذا الرأي وهو الأخير هو أرجح الآراء وأصوبها وأولاها بالقبول، وقد علمنا من رجحه من العلماء الأقدمين، ورجحه أيضاً من المحدثين والمعاصرين الشيخ محمد الزرقاني في المناهل[4]، والشيخ موسى شاهين في اللآلئ[5]، والشيخ صبحي الصالح[6] في مباحثه.

---

1 - سورة طـه، الآية 9.
2 - سورة القيامة، الآية 4.
3 - جـ1، ص185.
4 - جـ1، ص153-157.
5 - ص131.
6 - ص 108.

ثم إن هذه الآراء الثلاثة التي ذكرتها[1]، وبينت أن كل واحد منها رجحه بعض العلماء، وأن أرجحها ثالثها بقي أن نعرف أنها كلها مبنية على أن العدد سبعة المذكور في الأحاديث مقصود به حقيقة العدد المحدد بين الستة والثمانية دون غيره حسب ما فهمه الأكثرون من العلماء، قال ابن حبان البستي[2]: الأكثر على أنه أي العدد محصور في سبعة[3]، والذين يستبعدون الحصر يغالون ويبالغون في هجران النصوص البالغة حد التواتر كما تقدم هذا ، وعلى الرغم من ترجيح الرأي الأخير من الآراء المبنية على أن العدد سبعة مقصود به حقيقة العدد فإن من العلماء من قال غير ذلك، وهو ما نراه في الفقرة الموالية.

رابعاً:- هل المراد من السبعة في الحديث حقيقة العدد أو المراد التوسعة على الأمة والعدد لا مفهوم له

هذا استفهام في بداية هذه الفقرة يحتوي على جانبين الجانب الأول منهما تكلفت ببيانه الفقرة السالفة كما علمنا بقي الجانب الثاني، وهو أن العدد سبعة الوارد في الأحاديث ليس المقصود منه حقيقة العدد وأنه لا مفهوم له بل هو رمز دال على الكثرة في الأوجه والكمال في العدد جرياً على عادة العرب، وما ألفوه في هذا العدد من الأحاد

---

1 - بقي رأي رابع وهو أن المراد من الأحرف سبع قراءات وهي التي تنسب إلى القراء السبعة ذكره السيوطي في الإتقان، جـ1، ص135، ينبغي التنبيه عليه لئلا يغتر به من لا علم له بالقراءات، وهو ضعيف من وجهين: أولهما عدم وجود كلمات في القرآن تقرأ بسبعة قراءات إلا نادراً كما في أفٍ وعبد الطاغوت.
وثانيهما: أن القراءات السبعة لم تعرف وتشتهر إلا في وقت متأخر على رأس المائتين من الهجرة فلا تعقل إدارتها في الحديث الشريف، انظر تفسير القرطبي، جـ1، ص46، والإتقان للسيوطي جـ1، ص132- 141.

2 - هو الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان البستي، من كبار المحدثين، توفي سنة 354 هـ.

3 - البرهان للزركشي، جـ1، ص212.

كالسبعين في العشرات والسبعمائة في المئين[1]، فالمراد السبعة الأحرف الكثرة. وما تتحقق به التوسعة على الأمة في قراءة القرآن على سبعة أحرف أو أقل أو أكثر، وهذا الرأي قد قال به من الأقدمين القاضي عياض[2] من المالكية واختاره الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره، وصدر به كلامه في بيان المراد من السبعة أحرف قائلاً بعد ذكره لهذا الرأي: والأظهر ما ذكرنا من إرادة الكثرة من السبعة لا التحديد فيشمل ما ذكره ابن قتيبة وغيره من تغير بإدغام أو إظهار أو تفخيم أو إشمام أو غيره[3].

خامساً: ما الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف؟

مما تقدم من الأحاديث النبوية وما ذكر في الفقرتين السابقتين يمكنني تلخيص الحكم فيما يلي:-

أ. التيسير وتسهيل قراءة القرآن على الأمة الإسلامية عموماً[4]، وعلى العرب الذين شوفهوا بالقرآن إبان نزوله على وجه الخصوص مراعاة للاختلاف الواقع بين قبائلهم في اللهجات وطريقة النطق في أول الأمر، وفي عهد النبي ﷺ.

ب. جمع شمل الأمة الإسلامية وتوحيدها على لسان واحد وهو لسان قريش وهو لغتهم ولهجتهم التي نزل بها القرآن، وهي تتضمن معظم وأهم اللهجات العربية، وهي

1- ومثل هذا في القرآن قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾، وقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾، الآية الأولى من سورة البقرة، رقم 216، والثانية من التوبة رقم 80.

2- وهو عياض بن موسى البحصبي، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته من أشهر مؤلفاته الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، الإعلام، جـ2، ص749.

3 - تفسير القاسمي محاسن التأويل، جـ1، ص287.

4 -هناك من العلماء من يقول: إن التوسعة ليست مقصورة على اللهجات العربية، وإنما هي شاملة لجميع لهجات الشعوب الإسلامية حتى غير العرب، فإذا قرأ الهندي أو التركي المسلم القرآن ببعض الخلافات الصوتية في نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته فهي غاية جهده ولا يقدر على غيرها.

المقصودة من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ذلك لمكانة قريش بين العرب لكونهم حماة البيت الحرام وعماره ورعاة الحجيج الوافدين إلى البيت من كل صوب وفي كل عام.

ج. دلالة تعدد الحروف على حكمين شرعيين في حالتين مختلفتين كما في قوله تعالى: ﴿فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾[1] قرئت هذه الآية بنصب لفظ أرجلكم وجرها، فالنصب يعني العطف على لفظ الوجوه وهو يفيد وجوب غسل الرجلين، وأما الجر فيعني العطف على لفظ رؤوسكم ويفيد طلب المسح لكونه معطوفاً على الممسوح، وجاءت السنة النبوية فبينت أن المسح يكون للابس الخف والغسل يجب على من لم يكن لابساً له.

د. دفع توهم ما ليس بمراد من الآية كما في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]، وفي القراءة الأخرى في هذه الآية: ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾ فالذي تفيده القراءة الأولى من الذهاب إلى الصلاة بسرعة وهو المعبر عنه بالسعي دفعته القراءة الثانية وبينت أن المراد مطلق التوجه إلى الصلاة وهو المعبر عنه في الحديث النبوي بالسكينة والوقار.

هـ. بيان بعض الألفاظ المبهمة الغريبة عن بعض القبائل العربية، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[3]، فسرتها القراءة الأخرى: ﴿وتكون الجبال كالصوف المنفوش﴾[4]، ستأتي زيادة بيان وتوضيح لهذه الحكم في مبحث القراءات عند الكلام عن حكمة الاختلاف بينها إن شاء الله تعالى.

---

1 – الآية 6 من سورة المائدة.
2 – الآية 9 من سورة الجمعة.
3 – الآية 5 من سورة القارعة.
4 – مناهل العرفان، جـ1، ص148.

سادساً:- هل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن باقية إلى الآن يقرأ بها أو لا؟

هذه الفقرة أيضاً استهلت باستفهام وفي الإجابة عنه ثلاثة احتمالات:-

- أولها: عدم وجود شيء من الأحرف السبعة في القرآن الآن.
- ثانيها: وجودها كلها فيه.
- ثالثها: وجود بعضها فيه.

أما الاحتمال الأول فهو باطل و لم يقل به أحد من العلماء ولا من غيرهم، لأننا نقطع وبدون شك ولا ريب أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن موجودة فيه ولو بعضها يقرأ بها المسلمون منذ نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله تعالى، بقي الاحتمالان الثاني والثالث، وقع فيهما خلاف بين العلماء على قولين أولهما: اختيار الثاني وذهب إليه جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين وهو بقاء الأحرف السبعة كلها في القرآن وأنها موجودة فيه كتبت بها المصاحف العثمانية المنقولة من الصحف التي كتبت في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأجمع عليها الصحابة، قال الإمام السيوطي:-

وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك[1]، واحتج أصحاب هذا القول بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف ما دام القرآن نزل بها[2]، وذهب إلى الاحتمال الثالث وهو أن الباقي من الأحرف السبعة بعضها الجماهير من السلف والخلف وأئمة المسلمين، وقالوا إن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها وأختار هذا الرأي ابن

---

[1] - الإتقان للسيوطي، جـ1، ص142.

[2] - المصدر السابق، ص141.

الجزري فقال مشيراً إليه: وهذا هو الذي يظهر صوابه[1] وصححه القاضي أبو بكر ابن الطيب الباقلاني فقال: والصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطها عنه الأئمة وأثبتها عثمان والصحابة في المصحف وأخبروا بصحتها وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواتراً[2].

وأجاب هؤلاء عن احتجاج الأولين بأن الأمة لم تكن ملزمة بالقراءة بالسبعة الأحرف وإنما هي مخيرة[3] من جانب الرسول ﷺ في القراءة بأي واحد منها لقوله في الحديث فأي ذلك قرأتـــم أصبتهم[4] وقوله في حديث آخر: فأقرأوا ما تيسر منها[5]، وكانت تلك الحروف للتوسعة التي دعت إليها حاجة المسلمين في أول أمرهم ولما زالت تلك الحاجة ووقع خلاف بين المسلمين بسبب انتشار القراءة بجميع تلك الحروف اختار الأمام عثمان بن عفان حرفاً واحداً[6]، أو البعض الذي يحتمله رسم المصحف وأهمل الباقي دفعاً للخلاف ودرءاً للفتنة.

وأجمعت الأمة على هذا الاختيار الموفق وبهذا يكون الأمام عثمان قد وُفقّ إلى أمر عظيم رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة، رضي الله عنه وأرضاه.

---

1 - المصدر السابق.

2 - البرهان في علوم القرآن، جــ1، ص231.

3 - مناهل العرفان، جــ1، ص168، وفيه أن ابن جرير الطبري اختار هذا الرأي أيضاً ونكر أن المصاحف العثمانية لن تشتمل إلا على حرف واحد فقط من الحروف السبعة، جامع البيان، جــ1، ص19.

4 - رواه مسلم بهذا المعنى.

5 - رواه البخاري ومسلم.

6 - وهذا على رأي ابن جرير الطبري في تفسيره ونسبه القرطبي إلى الداودي وكثير من العلماء، انظر جامع البيان، ص20، جــ1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جــ1، ص46.

الأسئلة

س1- تحدث عن أهمية نزول القرآن على سبعة أحرف وإلى أي شيء ترجع تلك الأهمية مبيناً كيفية نشأة لهجات اللغة العربية في القبائل المختلفة، ثم اذكر نقاط المبحث بالإجمال؟

س2- بين معنى الحرف لغة مع ذكر إطلاقاته المتعددة عند علماء اللغة مستشهداً لما تذكر من كلامهم؟ ومبيناً أقرب تلك المعاني وأنسبها إلى المعنى الاصطلاحي؟

س3- اكتب ما يحضرك من أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف، مبيناً درجة تلك الأدلة من الصحة؟ وبحيث لا يقل ما تذكره منها عن أربعة أدلة؟

س4- اذكر عدد الأقوال التي ذكرها بعض العلماء في بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن؟ مبيناً الثلاثة المرجحة من بينها؟ وما هي الأصول الخمسة المأخوذة من مجموع الأحاديث التي تعين على فهم المراد من الأحرف؟

س5- الرأيان الأول والثاني من الآراء المرجحة يذكران الأحرف هي اللغات، بين الفرق بينهما واذكر من قال بكل منهما، أو أختاره من العلماء؟ وما هي أهم القبائل التي نسبت إليها اللغات التي ذكرها أصحاب الرأي الأول؟

س6- ذكر أصحاب الرأي الثالث أن المراد من الأحرف الأوجه التي وقع بها التغاير والاختلاف في القراءة، اذكر تلك الأوجه السبعة مع التمثيل لها مبيناً من قال بهذا الرأي أو اختاره من العلماء؟

س7- اذكر أرجح الآراء في المراد من الأحرف السبعة، وما الدليل على أرجحيته؟ وهل المراد من السبعة في الأحاديث حقيقة العدد المعلوم أو المراد التوسعة والعدد لا مفهوم له؟ وضح الخلاف في هذه المسألة مبيناً ما يترجح به أحد الاحتمالين في هذا الاستفهام؟ مع ذكر من قال بالاحتمال الثاني أو اختاره من العلماء؟

س8- بين الحكمة من إنزال القرآن على سبعة أحرف بأوجهها الخمسة، مع التمثيل لما يمكن التمثيل له من الآيات؟ وهل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن باقية كلها في المصاحف في العصر الحاضر أو لا؟ موضحاً الاحتمالات الثلاثة في الاستفهام واذكر من قال بكل احتمال منها، أو اختاره من العلماء؟ واذكر الراجح منها ودليل ترجيحه؟

المبحث الرابع

أسباب النزول

التعريف بالموضوع، والعمدة في معرفة أسباب الترول:-

تطلق أسباب الترول ويراد منها تلك الوقائع والظروف والمناسبات التي لابست نزول شيء من القرآن الكريم، وتحدث عنها النازل أو أشار إليها، والعمدة في معرفتها هو: النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين لا غير، ولا يجوز القول فيها بالرأي والاجتهاد، لذلك نجد أغلب الآيات لم يذكر المفسرون أسباباً خاصة لترولها، فتكون داخلة تحت السبب العام الذي نزل القرآن الكريم من أجله، وهو: الهداية إلى ما فيه سعادة الدارين، لهذا لا يستغرب المطلع على كتب التفسير عدم ذكر مؤلفيها أسباباً خاصة لجميع الآيات، هذا مع العلم بأن العلماء قد قرروا بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1].

أهمية العلم بأسباب الترول وفائدته:-

أصبح من المعروف أن من أهم مباحث علوم القرآن معرفة أسباب الترول لأنه يساعد على فهم الآية أو الآيات فهماً صحيحاً مطابقاً للمراد منها، إذا العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[2]، قال الإمام الشاطبي: (معرفة أسباب الترول لازمة لمن أراد علم القرآن).

ولأهمية هذا المبحث، اختصه بعض المفسرين بعناية فائقة حتى أفردوه بالتأليف، مثل شيخ الإمام البخاري (علي بن المديني) والواحدي والسيوطي، وغيرهم.

1- مثل آية الظهار وآية اللعان، فإن الأولى نزلت في شأن أوس بن الصامت، والثانية نزلت في حادثة هلال بن أمية، مع أن العلماء أجمعوا على تعدية حكمهما إلى غير هذين الرجلين وعمومه.

2- تتوقف المطابقة وعدمها على مدى صحة نقل السبب المساعد على الفهم، الإتقان، جـ1، ص83.

قال الزركشي في البرهان: (لقد أخطا من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك..)[1] ثم ذكر له فوائد كثيرة، نلخص منها ما يلي:-

1- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

2- الوقوف على المعنى وفهمه فهماً صحيحاً، قال الإمام أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز.

3- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

4- دفع توهم الحصر، ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا.. ﴾[2]، فإن الكفار حرّموا ما أحلّ الله، وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت هذه الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، و لم يقصد حل ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

5- إزالة الإشكال، ففي الصحيح عن مروان بن الحكم أنه بعث إلى ابن عباس يسأله لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ثم تلا: ﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾[3]، إلى قوله: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾[4].

1- البرهان للزركشي، جـ1، ص22.

2 - جـ1، ص22، أية145، من سورة الأنعام، وتمامها: ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

3 - آية 187 من سورة آل عمران.

4 - آية 188 من سورة آل عمران.

وذلك لأن أهل الكتاب من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه[1]، وفرحوا بما أوتوا من كتمانه، ومن أمثلة هذه الفائدة تفسير النبي ﷺ الظلم بالشرك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ..﴾[2] الآية، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ومثله ما في موطإ الإمام مالك رحمه الله تعالى: عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، قالت عائشة: (كلا ولو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما إنما نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلّون لمناة، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ إِنَّ الصَّفَا.. ﴾[3].

تعدد الأسباب لمنـــزل واحد:-

قبل الكلام على هذه الفقرة، ينبغي أن يعلم طالب التفسير عبارات المفسرين في بيان سبب نزول الآيات لأن تعبيراتهم عنه مختلفة، فمنهم ما يكون صريحاً ودالاً دلالة واضحة على بيان سبب النـــزول، ومنها ما يحتمل أن يكون بياناً للسببية، ويحتمل أن يكون بياناً لمعنى الآية وما ترشد إليه من أحكام.

---

1 - قال السيوطي أخرجه الشيخان، الإتقان، جـ1، ص29.
2 - هذه الآية لما نزلت شق ذلك على صحابة النبي ﷺ، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فأجابهم الرسول بما ذكر، انظر تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ص209.
3 - صحيح البخاري كتاب التفسير، جـ6، ص28، والموطأ، ص311.

مثال الأول:- (وهو التعبير الصريح في بيان السبب) أن يقول المفسر: سبب نزول الآية أو الآيات كذا وكذا، أو يقول: سئل رسول الله ﷺ عن شيء فأنزل الله آية كذا، أو يذكر المفسر قصة أو حادثة، ثم يردفها بقوله فأنزل الله أو فنزل كذا بلفظ الفاء الدالة على الترتيب في الحالتين.

ومثال الثاني:- (وهو التعبير المحتمل لبيان السبب ولغيره) أن يقول أحد المفسرين: الآية أو الآيات نزلت في كذا، فإن هذه العبارة ونحوها محتملة لأن تكون لبيان السبب ومحتملة لأن تكون لبيان المعنى المراد من الآية، وبعد هذا البيان فإذا وجدنا روايتين في بيان سبب نزول الآية وكل منهما صريحة في السببية وذكرت سبباً غير الذي ذكرته الأخرى نظرنا فيهما، ولهذا النظر أربعة صور ولكل صورة حكم خاص، وفيما يلي بيانها مع أحكامها وأمثلتها.

1- الصورة الأولى

أن تكون إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة، فالحكم الأخذ بالصحيحة وترك الأخرى، مثالها ما روي في سبب نزول سورة: الضحى، ففي الصحيحين —البخاري ومسلم- عن جندب رضي الله تعالى عنه، قال: اشتكي النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، وفي الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها — وكانت خادم رسول الله ﷺ - أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا يترل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني؟ فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ

ترعد لحيته – وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى... ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْضَى.. ﴾ ويؤيد ما ذكرت من الأخذ بالرواية الأولى المروية في الصحيح وترك الثانية المروية في غيره ما ذكره العلامة ابن حجر في شرح البخاري، فقال: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبباً لنزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف أ.هـ.

2- الصورة الثانية

أن تكون كل من الروايتين في سبب النزول صحيحة ولكن لأحدهما مرجح يرجحها عن الأخرى مع عدم إمكان الجمع بينهما، فالحكم حينئذ للراجحة دون المرجوحة.

والمرجح المعتبر هو أن تكون إحدى الروايتين أصح من الأخرى، أو يكون أحد الراويين مشاهداً للقصة دون الآخر.

المثال: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

فقد أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لو سألتموه فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

وفي الرواية الأخرى، أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل؟ فقالوا: اسألوه عن

الروح، فسألوه، فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ.. ﴾ الآية[1]، فهذه الرواية تقتضي أن الآية نزلت بمكة، والأولى تدل على أنها نزلت بالمدينة، فاختلفا، ومن المعلوم أن رواية البخاري أصح فتقدم على غيرها، كذلك الرواية الأولى تصرح بأن راويها وهو عبد الله ابن مسعود قد شاهد القصة فترجحت الأولى عن الثانية بمرجحين، فتكون هي المعتبرة في سبب نزول الآية المذكورة دون غيرها.

3- الصورة الثالثة

أن تصح الروايتان ولا مرجح لإحداهما على الأخرى ويمكن الجمع بينهما بأن يتقارب زمن الحادثين مثلاً، فالحكم لهما معاً حينئذ.

مثالها: سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ... ﴾ الآية[2]، فقد أخرج البخاري عن طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء[3]، فقال النبي ﷺ: البيِّنة، أو حدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيِّنة، فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ.. ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾وأخرج الشيخان – البخاري ومسلم- عن سهل بن سعد، قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل الرسول ﷺ، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب السائل، فأخبر عاصم عويمراً فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتاه، فقال: ((إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن))، الحديث أ.هـ. لفظ

[1] – الإتقان في علوم القرآن، جـ1، ص32-34، والآية 85 من سورة الإسراء.
[2] – الآية 6 من سورة النور.
[3] – أي رماها بالزنا معه.

البخاري[1]، وفي رواية لمسلم: فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها[2].

فهاتان الروايتان مستويتان في الصحة ولا مرجح لإحداهما، ويمكن الجمع بينهما لقرب زمان السؤالين، فيكون السؤال أولاً من هلال وثانياً من عاصم، فجاءت الآية جواباً لهما معاً، وإلى الجمع جنح النووي وسبقه إليه الخطيب، فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد. هـ[3].

4- الصورة الرابعة

أن تستوي الروايتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما مع عدم إمكان الجمع بينهما لبعد زمان الحادثين أو القصتين، فالحكم هو الحمل على تكرار نزول الآية أو الآيات بعدد الروايات المذكورة بالصفات السابقة، مثالها ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ.. ﴾ الآيات الثلاث من آخر سورة النحل، فقد أخرج البيهقي والبزار عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ وقف على عمه حمزة حين استشهد وقد مُثِّلَ به، فقال: لأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ..﴾ إلى آخر السورة.

1 - الإتقان، جـ1، ص33.

2 - قاله الشيخ محمد عبد العظيم في المناهل، جـ1، ص112.

3 - وبعض العلماء رجح الأولى على الثانية، وذلك بتأويل الثانية وإن قوله ﷺ في الثانية قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن، معناه: ما نزل سابقاً في قصة هلال لأن ذلك حكم عام لجميع الناس لا أنه سبب مباشر لنزولها، أ. هـ. من المناهل، جـ1، ص112.

وفي الرواية الأخرى، أخرج الترمذي والحاكم عن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة، منهم حمزة فمثَّلوا بهم، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ .. ﴾ الآية، فظاهر الروايتين مختلف، فالأولى تدل على أن لآية نزلت عام أحد السنة الثانية من الهجرة، والرواية الثانية تدل على أنها نزلت عام الفتح في السنة التاسعة من الهجرة، فلا يصح الأخذ بكل منهما على أساس الجمع بينهما كالصورة السالفة، ولا يمكن ترجيح إحداهما بدون مرجح، ولا ردهما لورودهما في الصحيح، فتعين إذاً حملهما على تكرر نزول الآية مرتين في المدينة، على اعتبار أن الآيات مستثناة من السورة المكية أو ثلاث مرات، على اعتبار القول بأن السورة كلها مكية، أي نزلت مرتين بالمدينة، ومرة بمكة[1].

تعدد المنـــزل لسبب واحد:-

هذا الموضوع على عكس سالفه، لأنه يتعلق بالآيتين أو الآيات التي تنزل عقب سبب واحد، ولعل الحكمة من وقوعه المبالغة في الإقناع وتأكيد الحكم، وقد ذكر العلماء له صورتين:-

الأولى:- نزول آيتين عقب سبب واحد.

---

1 - هذه الصور الأربع فيما إذا استوت الروايتان في التعبير عن السببية وكانت كل منهما صريحة في الدلالة عليها، كما علم، وأما إذا كانت إحدى الروايتين صريحة والأخرى محتملة، فالحكم للصريحة مثل ما أخرجه مسلم عن جابر قال: كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾. وأخرج البخاري عن ابن عمر، قال: أنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ في إتيان النساء من أدبارهن، فالعمدة على حديث جابر ويحمل حديث ابن عمر على الاستنباط والتفسير، وأما إذا كانتا محتملتين معاً فتحمل كل منهما على بيان المعنى والشرح والتفسير ولا يعتمد على أي منهما في بيان سبب النزول.

مثالها: ما أخرجه ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذ جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[1].وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ..أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[2].

الثانية:- أن تنزل ثلاث آيات أو أكثر لسبب واحد، مثال الثلاثة ما أخرجه الحاكم والترمذي عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[3].

وأخرج الحاكم عنها أيضاً أنها قالت: قلت يا رسول الله: تذكر الرجال ولا تذكر النساء، فأنزلت: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ..﴾، وأنزلت: ﴿ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى

---

[1] - آية 74 من سورة التوبة.
[2] - الأيتان 18-19 من سورة المجادلة.
[3] - آية 195 من سورة آل عمران.

بَعْضٍ ﴾[1]، وأنزل:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ.. ﴾[2]. والمقصود أن سؤال أم سلمة كان سبباً في نزول ثلاث آيات.

---

[1] - آية 32 من سورة النساء.

[2] - من مناهل العرفان، جـ1، ص115-116، والآية 35 من سورة الأحزاب.

الأسئلة

س1- ما المراد من أسباب النزول مبيناً العمدة في معرفتها؟ ولماذا لم يذكر المفسرون أسباباً خاصة لجميع الآيات القرآنية؟ ثم اذكر السبب العام أو الأسباب العامة التي أنزل من أجلها القرآن؟

س2- بين أهمية العلم بأسباب النزول مستدلاً على ذلك بما يحضرك من أقوال العلماء في بيانها؟ ثم اذكر الفوائد المترتبة على معرفة أسباب النزول مع التوضيح بالأمثلة؟

س3- اختلفت تعبيرات المفسرين في بيان أسباب النزول ميز بين عباراتهم التي تكون صريحة وخاصة ببيان السببية وبين ما تكون محتملة لها أو لبيان معنى الآية أو الآيات؟ مع التمثيل لكل منهما؟

س4- إذا تعددت الروايات وذكرت أسباباً متعددة لنازل واحد فكيف يكون العمل بمقتضاها والحالة هذه مع التمثيل للتوضيح؟

س5- هل يتعدد المنـــزل لسبب واحد مع التمثيل بآيتين نزلتا لسبب واحد أو أكثر نـــزلن أيضاً لسبب واحد؟

المبحث الخامس

جمع القرآن وتدوينه

جمع القرآن وتدوينه[1]:-

للإحاطة بموضوع جمع القرآن يحسن أن أتكلم عليه في عصوره الثلاثة، وهي عصر النبي ﷺ، وعصر الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وعصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، كل عصر على حدة، وفيما يلي التفصيل:-

أولاً:- في عصر النبي ﷺ

من المعلوم أن النبي ﷺ بعث وهو أمّي (لا يعرف القراءة والكتابة) في قوم أميين، قال الله تعالى في محكم الآيات: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[2].

وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

ولم يشذ عن وصف الأمية في العرب إلا أفراد قلائل من قريش كانون يعرفون القراءة والكتابة.

فمن أجل هذا، كان من الطبيعي أن يعتمد النبي ﷺ والمسلمون الأولون في أول أمرهم على حفظ القرآن في الصدور، جرياً على عادة العرب آنذاك من التعويل على الذاكرة والحفظ في الصدور دون الكتابة والسطور.

---

1 - يقصد بالجمع هنا ما يشمل الجمع بمعنى الكتابة - أي ضم الحروف بعضها إلى بعض- وبمعنى جمعه في الصدور أي حفظه واستظهاره ليعم الجمع في العصور الثلاثة المذكورة بكيفياته المختلفة، ويكون عطف التدوين عليه من باب عطف التفسير على الأول، ومن باب عطف المغاير على الثاني وهو الأولى.

2 - آية 48 من سورة العنكبوت.

3 - آية 2 من سورة الجمعة.

فكان النبي ﷺ يتلقى القرآن من جبريل عليه السلام ويتعجل حفظه واستظهاره ويحرك به لسانه قبل ذلك مخافة أن يفلت منه شيء من القرآن حتى قال الله تعالى له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[1].

هذا ولشدة محافظته ﷺ على القرآن وليزداد الناس ثقة به، حرص على كتابة وتسجيل كل ما يترل عليه من القرآن، وكان من عاداته بمجرد ما ينتهي نزول الآية أن يسارع إلى بعض من يحسن الكتابة من أصحابه الكرام، فيأمرهم بكتابتها بين يديه الشريفتين على ما تيسر لديهم من الأشياء التي يمكن الكتابة عليها من العسب[2] أو اللخاف[3] أو الرقاع[4] أو نحوها[5]، ثم يوضع المكتوب في بيت النبي ﷺ ويحتفظ من يكتب بنسخ يخصون بها أنفسهم، وكان للوحي كّتاب معروفون وصل عددهم إلى ستة وعشرين في رواية، أو اثنين وأربعين في رواية أخرى، وكان من بينهم وأشهرهم الخلفاء الأربعة – أبو بكر وعمر وعثمان وعلي– وعامر ابن فهيرة وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والزبير بن العوام وعبد الله بن أبي سرح.

ومما تقدم، نرى أن حافظة الأمين وما كتب وحفظ في بيته ﷺ وما اختص به الكاتبون أنفسهم كلها عوامل حفظ وصيانة تتعاون وتتضافر على المحافظة على ما أُنزل من كتاب الله تعالى، وما أن توفي النبي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى إلا وكان هناك عدد كبير

---

1 – الآيات 16-19 من سورة القيامة.

2 – العسب بضم العين والسين جمع عسيب وهو جريد النخل يكشف عنه الخوص ويكتب على طرفه العريض، انظر البرهان للزركشي، جـ1، ص232.

3 – بكسر اللام جمع لخفة بفتحها وهي الحجارة الرقاق العراض.

4 – الرقاع جمع رقعة وهي القطعة من الجلد أو القماش.

5 – وكان النبي ﷺ أثناء الكتابة يدلهم على موضع الآيات من سورها، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: ضعوا هذه الآيات في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا)).

من الصحابة يعدّون بالعشرات، يحفظون القرآن كله عن ظهر قلب، بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار وفيهم عدد من النساء، منهم على سبيل المثال لا الحصر الإمام علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، الذي شهد العرضة الأخيرة للقرآن من النبي ﷺ وعبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل، وهؤلاء الأربعة هم الذين أمر الرسول ﷺ بأخذ القرآن عنهم، ومن النساء أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وحفصة بنت عمر[1].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بصفة عامة، يتسابقون في حفظ القرآن ومدارسته وفهم معانيه وتطبيقه، حتى رأيناهم يقدرون قيم الرجال بقدر ما يحفظون من القرآن، ورُوي عن الصحابي الجليل أنس بن مالك، قال: ((كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا))[2].

من جميع ما تقدم، يتبين لنا أن القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ تم له كمال التواتر والضبط بالحفظ في الصدور وبالكتابة على الخرق ونحوها، غير أن هذه الأشياء التي كتب عليها في ذلك الوقت كانت تشمل منسوخ التلاوة وغير المتواتر من القرآن، ولم تكن مرتبة السور والآيات، اللهم إلا بالنظر لكل قطعة كتبت عليها آيات متعددة فإنها مرتبة في حد ذاتها، ولم يكن الترتيب المعهود والمثبت في المصاحف معروفاً إلا بالحفظ والنقل عن النبي ﷺ في العرضة الأخيرة، ومن قراءته في الصلوات وقيام الليل، ومن عظاته وإرشاداته المختلفة في المناسبات المتعددة، والترتيب بين الآيات في سورها محل إجماع بين المسلمين كما سيأتي الكلام عليه مفصلاً في المبحث السادس، قال الإمام الزركشي: ((في البرهان ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف بين المسلمين)).

---

[1] – ذكر السيوطي في الإتقان أن عددهم وصل إلى الثلاثين كلهم يحفظون القرآن كله عن ظهر قلب من المهاجرين والأنصار.

[2] – أي جل وعظم قدره، رواه الإمام أحمد في مسنده.

ومن النصوص المؤيدة لهذا الإجماع ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال: ((كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص يـــبصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة)) ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى..﴾ الآية[1].

ثانياً:- جمع القرآن بكتابة الصحف في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه[2]

الدواعي والأسباب لهذا الجمع:-

حدثت في عهد الصديق حروب الردة المشهورة، ومن بينها موقعة اليمامة[3] التي استشهد فيها سبعون من قراء القرآن وحفظته المشهورين، ومن بينهم وأجلهم سالم مولى أبي حذيفة.

وكان قبل ذلك، وفي حياة النبي ﷺ قد استشهد آخرون في حادثة بئر معونة وحدث أن سأل عمر بن الخطاب عن آية، فقيل: له إنها كانت مع فلان، وقد قتل يوم اليمامة فأشفق عمر وخاف من أن يستمر القتل في صفوف القراء في المواقع المقبلة فيضيع جزء من القرآن بموت حفظته، فأشار على الخليفة أبي بكر أن يجمع القرآن في صحف، ولكن الخليفة عارض الفكرة أول الأمر واستعظمها، وبعد مفاوضة وأخذ وردّ بين الشيخين اقتنع الخليفة ورأى أن في جمع القرآن وحفظه في صحف مصلحة الإسلام

---

1 – مناهل العرفان، ص340، جـ1، والآية رقم 90 من سورة النحل.

2 – الصحف، جمع صحيفة، وهي القطعة من الورق أو الجلد يكتب عليها، أما المصحف: ما تجمع فيه الصحف، ولوحظ في معناه دفتاه، وهما جانباه أي الجلدان اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه وحافظاً لصحفه.

3 – وقعت بين مسيلمة الكذاب وأتباعه من بنى حنيفة وبين المسلمين في السنة الثانية عشرة من الهجرة.

والمسلمين، وبعد أن شرح الله صدره للفكرة اتفقا معاً هو وصاحبه على تنفيذها وانتدبا زيد بن ثابت لذلك، نظراً لما نحلى به رضي الله عنه من صفات تؤهله لهذه المهمة، قال عمر مخاطباً أبا بكر: أما إذا عزمت على هذا فأرسل إلى زيد فادعه فإنه كان شاباً حدثاً نقياً يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فادعه يجمعه معنا.

ولما جاء زيد حدث له ما حدث لأبي بكر من المعارضة والاستعظام، ولكنه ما لبث أن وافق وتحمس للعمل من أجل الحفاظ على كتاب الله تعالى.

وفي هذا يحدثنا زيد رضي الله عنه فيما رواه عنه البخاري، فيقول: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه، إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر – أي أشتد – يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر: هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد، وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره[1]، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

[1] – قال في المناهل: أي لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري مع أن زيداً نفسه كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثيق ومبالغة في الاحتياط أ.هـ. ص245، جـ1.

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ إلى آخر سورة التوبة أ.هـ[1]. فجمعه زيد رضي الله تعالى عنه في صحف كل سورة على حدة مرتبة الآيات من غير مراعاة لترتيب السور بعضها مع بعض.

الدستور الذي تم عليه هذا الجمع:-

وضع الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه طريقة مثلى ودستوراً قيماً لجمع القرآن في عهده بلغت الذروة في التحري والتثبت والغاية من الحيطة والحذر، فلذلك لم يكتف زيد رضي الله عنه بما حفظه في قلبه ولا بما كتبه بيده، بل أخذ على نفسه أن يعتمد على قاعدتين اثنتين:-

أولاهما: أن تكون الآية أو الآيات مما كتب بين يدي رسول الله ﷺ ويشهد بهذا شاهدان.

ثانيتهما: أن تكون محفوظة عند جمع من الصحابة، يدل لهذا ما أخرجه أبو داوود بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه، أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: ((أقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه))، انتهى كلام أبي بكر، قال ابن حجر في شرح هذا الحديث (المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة)، وقال السخاوي: "المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ"[2].

وبعد أن أتم الصدّيق وضع الطريقة لجمع القرآن، قام عمر الفاروق في الناس وقال: "من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به"[3].

---

1 – المصدر السابق نفسه، ص244.
2 – من مناهل العرفان، ص345، جـ1.
3 – من المصدر السابق.

وسرعان ما استجاب له الصحابة فجمعوا له كل ما عندهم من الأشياء التي كتب عليها القرآن وأخذوا في العمل، فكان أبيّ بن كعب يملي وزيد بن ثابت يكتب في حضور عمر بن الخطاب، واستمروا في العمل على هذا النحو طوال سنة تقريباً، وهكذا تم الجمع وفقاً للدستور الرشيد المتقدم بإشراف أبي بكر وعمر، وعلى علم من سائر صحابة رسول الله ﷺ وأجمعت عليه الأمة وتلقته بالقبول، وفي النهاية ضمت الصحف وربطت بخيط، وحفظت في بيت أبي بكر ثم ببيت عمر في حياته، ثم انتقلت إلى بيت ابنته حفصة أم المؤمنين بعد وفاته رضي الله عنهما، وبقيت عندها إلى أن طلبها منها عثمان ونسخ منها مصاحف ثم ردها إليها وبقيت حتى توفيت، وعند الرجوع من جنازتها طلبها مروان بن الحكم من أخيها عبد الله بن عمر، فأمر بها فغسلت ثم شققت وأحرقت بالنار.

مميزات صحف أبي بكر:-

من المنهج السالف الذي تم عليه الجمع، نلاحظ أن الصحف تمتاز بمميزات عظيمة تحقق لها الدقة التامة والثقة المتناهية الشاملة، وفيما يلي إجمال لها:-

1- إنها شملت كل القرآن على أكمل وجوه التحري والتثبت العلمي.

2- أنها جاءت مقتصرة فقط على القرآن الذي لم تنسخ تلاوته.

3- أنها حازت على الثقة التامة والتواتر الكامل، وأجمع عليها المسلمون كافة، وأقروا بأنها جمعت كل القرآن دون زيادة أو نقصان.

ثالثاً:- جمع القرآن بكتابة المصاحف في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان

الدوافع والدواعي إلى هذا العمل:-

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد حظر على علماء المهاجرين من الصحابة مغادرة المدينة المنورة إلا بإذن وأجل، ولما توفي وتولى الخلافة بعده عثمان بن عفان، أباح ما كان قد حرمه سلفه من قبل، فتفرق كبار الصحابة في الأمصار الإسلامية إثر انتشار الإسلام وتوسع الفتح، وكان من بين هؤلاء كبار القرّاء وحفّاظ القرآن، وأخذ أهل كل بلد من بلاد الإسلام بقراءة من نزل عندهم من الصحابة فقرأ الشاميون بقراءة أبيّ بن كعب، واقتدى الكوفيون بعبد الله بن مسعود في القراءة.

وأما البصريون، فقرأوا بقراءة أبي موسى الأشعري، وعندما عزم المسلمون على فتح أرمينية وأذربيجان[1]، اجتمع جيش إسلامي عظيم يضم أعداداً من جميع تلك الأمصار، فاختلفوا في القراءة واشتد الخلاف بينهم حتى كادت تقع فتنة، وقال بعضهم لبعض: ((قراءتي خير من قراءتك)) وبعضهم قال لخصمه: (قراءتي هي الصواب وقراءتك باطلة)) وكان في هذا الجيش حذيفة بن اليمان فغضب لهذا الخلاف غضباً شديداً وأشفق على المسلمين من أن يقع بينهم ما لا تحمد عقباه، فحلف أن لا يدخل داره حتى يبلّغ الخليفة بما وقع.

---

1 - أذربيجان بهمزة مفتوحة وبعدها ذال معجمة مفتوحة أيضا وراء ساكنة وباء مفتوحة وباء ساكنة: كورة فارسية قديمة وجمهورية سوفيتية الآن، تم فتحها فيما بين سنة 18، 22 هجرية، وأما أرمينية فتطلق على البلاد الجبلية الواقعة في غربي آسية أ. هـ. من دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص33، ط الشعب.

ولما رجع الجيش الإسلامي منتصراً أسرع حذيفة إلى عثمان وقال: أدركِ الأمة قبل أن تهلك، قال في ماذا؟ قال كتاب الله، ووصف له ما تقدم، وقال: ((إني أخشى أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى)).

أضف إلى هذا ما وقع داخل المدينة نفسها دار الخلافة وحاضرة الإسلام من اختلاف في القراءة بين الغلمان المتعلمين فيما بينهم، وسرى هذا إلى المعلمين أيضاً حتى كفّر بعضهم بعضاً ووصل الخبر إلى الخليفة عثمان بن عفان، روى ابن أبي داوود في المصاحف عن أبي قلابة، قال: لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل – أي رجلاً آخر غير الأول- فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفّر بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: ((أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً)).

وكان من آثار هذا وذاك أن دعا الخليفة عثمان بن عفان كبار الصحابة وحفّاظ القرآن واستشارهم في الأمر، وقال: ((ما ترون في المصاحف[1] فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى أن الرجل ليقول قراءتي خير من قراءتك، وقراءتي أفضل من قراءتك وهذا شبيه بالكفر))، واقترح عليهم أن يجتمع الناس على قراءة واحدة فجاء ردهم بالتفويض فقالوا: (الرأي رأيك يا أمير المؤمنين).

تنفيذ قرار الجمع:-

في أواخر السنة الرابعة والعشرين من الهجرة النبوية شرع أمير المؤمنين عثمان في تنفيذ قراره الحكيم، فأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر وطلب منها أن تبعث إليه بالصـــحف التي كتبت في عهد أبي بكر لينسخ منها مصاحف يجتمع عليها المسلمون،

[1] – المناهل، ص249، جـ1.

فأبت عليه أول الأمر، ولكنها أخيراً- وبعد أن شرطت أن يردها إليها بعد نسخها - أرسلتها إليه.

وانتدب رضي الله عنه لعملية النسخ اثني عشر رجلاً[1] من كبار حفّاظ القرآن، بعضهم من المهاجرين من قريش، وبعضهم من الأنصار، وأمّر عليهم زيد بن ثابت وسعيد ابن العاص، وكان هذا بعد أن استشار الصحابة قائلاً: ((مَن أكتب الناس؟ قالوا: زيد بن ثابت كاتب رسول الله ﷺ))، قال: ((مَن أفصح الناس؟ قالوا: سعيد بن العاص)).

ثم قال: ((فليمل سعيد وليكتب زيد)).

كان من بين أعضاء هذه اللجنة المباركة:-

1- حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه.

2- عبد الله بن الزبير بن العوام.

3- خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك.

4- عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

5- أبيّ بن كعب.

6- كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري.

7- مالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس صاحب المذهب المشهور.

منهـــجهم في الكـــتابة:-

ولما تم تشكيل لجنة النسخ، وضع عثمان بعد استشارة الصحابة، منهجاً يسيرون عليه في كتابة المصحف، فأمرهم أن يتخذوا من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر

---

[1] - الإتقان، جـ1، ص170.

إماماً، وإذا اختلفوا في شيء من القرآن أن يكتبوه بلسان قريش لأنه نزل بلسانهم[1]، وأن لا يكتبوا شيئاً إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة، وقد لخص الشيخ موسى شاهين لاشين ذلك المنهج في النقاط التالية:-

1- أن لا يكتبوا شيئاً إلا بعد التحقق من أنه قرآن.

2- أن لا يكتبوا شيئاً إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

3- أن لا يكتبوا شيئاً إلا بعد التأكد من أنه لن تنسخ تلاوته.

4- أن لا يكتبوا شيئاً إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

5- إذا اختلفوا في شيء من القرآن كتبوه بلغة قريش – أي بلهجتهم – وقد اختلفوا في التابوت والتابوه في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ..﴾ الآية[2]، فقال القرشيون التابوت، وقال زيد التابوه فرفع الخلاف إلى عثمان فقال: ((اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش)).

6- أن يحافظوا على القراءات المتواترة ولا تكتب قراءة غير متواترة.

7- اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات يرسم بصورة واحدة.

8- اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات ويمكن رسمه في الخط محتملاً لها كلها يكتب برسم واحد مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[3] فإنه يصلح أن يقرأ بالقراءة الأخرى (فتثبتوا) لأن الكتابة كانت خالية من النقط والشكل.

---

[1] – قال بعض العلماء: إن المراد من اللسان هنا هو طريقتهم في الكتابة، والظاهر أنه لهجتهم وطريقتهم في النطق.

[2] – الآية 248 من سورة البقرة.

[3] – الآية 6 من سورة الحجرات.

9- اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات ولا يمكن رسمه في الخط محتملاً لها يكتب في نسخة برسم يوافق بعض الوجوه، وفي نسخة أخرى بما يوافق البعض الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾[1] فإنها تكتب في نسخة أخرى، وأوصى بالهمزة لأنهما قراءتان..

وتحاشوا أن يكتبوا الرسمين في مصحف واحد أحدهما في الأصل والآخر في الهامش، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول، أو أن الأول أصل والثاني فرع فتضعف قراءة أحد اللفظين عن الآخر بدون مرجح أ.هـ[2].

وبعد أن أتموا العمل طبقاً لهذا المنهج القيّم ونسخوا من المصحف عدة نسخ قيل خمس وقيل ست وقيل سبع وقيل ثمان، احتفظوا بنسخة أو نسختين في المدينة وأرسلوا بقية النسخ إلى أمصار المسلمين، فكانت موزعة كالآتي:-

1- المصحف الإمام وهو المصحف الذي احتفظ به الإمام عثمان بن عفان وخص به نفسه.

2- المصحف المدني.

3- المصحف البصري.

4- المصحف الكوفي.

5- المصحف الشامي.

ومن قال إنها ستة زاد المصحف المكي، ومن قال إنها سبعة زاد مصحف البحرين ومصحف اليمن، وجعل للمدينة واحداً أو اثنين فيكون العدد حينئذ ثمانية[3].

---

1 - الآية 132 من سورة البقرة.

2 - اللآلئ الحسان، ص62-63.

3 - من المصدر السابق بتصرف قليل، والإتقان، جـ1، ص172، والألوسي، جـ1، ص23 هامش.

وأخيراً أمر عثمان رضي الله عنه بأن تحرق جميع الصحف والمصاحف ما عدا هذه، لما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فيما رواه عنه الإمام البخاري، قال: " وأمر – يعني عثمان – بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق".

وقد استجاب الصحابة رضوان الله عليهم وأحرقوا صحفهم ومصاحفهم الخاصة إلا عبد الله بن مسعود الذي غضب لعدم اختياره في لجنة النسخ[1].

ولكنه أخيراً رجع عن موقفه وعاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهرت له مزايا المصاحف العثمانية التي حازت ثقة الأمة الإسلامية الكاملة، وإجماعها التام وتوحدت بها كلمة المسلمين وأزالت بوادر الاختلاف من بينهم، فرضي الله عن الإمام عثمان وعن جميع صحابة رسول الله أجمعين، ومما يؤيد ما ذكر من الإجماع على المصاحف العثمانية وتحريق ما عداها ما رواه أبو داوود بسند صحيح عن ابن أبي سويد بن غفلة عن الأمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: "لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا"[2]، وفي رواية أخرى: "لو وليت لعملت بالمصحف الذي عمله عثمان".

---

[1] – وذلك لما يراه في نفسه من الكفاءة لهذا العمل، ولعل عذر الخليفة في عدم اختياره هو بُعده عن المدينة في ذلك الوقت.

[2] – راجع تفسير روح المعاني للألوسي، جـ1، ص31.

الفرق بين الجمع في عصوره الثلاثة:-

إذا أردنا معرفة الفرق بين جمع القرآن وكتابته في مراته الثلاث فلننظر ملياً في جميع ما تقدم في هذا المبحث حيث نشاهده واضحاً جلياً من نواحٍ عدة ومن حيثيات مختلفة، تتلخص في الآتي:-

1- من حيث الغرض والهدف، وذلك لأن الجمع في زمن النبي ﷺ كان الغرض منه زيادة الاستيثاق والمحافظة على كتاب الله تعالى، وأما في المرة الثانية فقد علمنا أن المقصود منه صيانة القرآن خوفاً من أن يضيع منه شيء بموت حفظته، وأما الجمع الأخير فكان الغرض منه سد باب الفتنة ودفع النزاع والاختلاف في كتاب الله بين المسلمين.

2- من حيث الأدوات والأشياء التي كتب عليها القرآن، فإنها كانت في جمع عثمان تسمى مصاحف، وفي عهد أبي بكر تسمى صحفاً، وفي العهد النبوي الشريف لا تسمى صحفاً ولا مصاحف.

3- من حيث الترتيب، وذلك لأن المكتوب في وقت النبي ﷺ لم يكن مرتباً لا بالنظر للسور ولا الآيات، اللهم إلاّ إذا اعتبرنا الترتيب الواقع في كل قطعة على حدة من الأشياء التي كتب عليها فإنها مرتبة في حد ذاتها، وأما صحف أبي بكر فإنها مرتبة الآيات في كل سورة على حدة، وأما السور فلم تكن مرتبة ترتيباً كاملاً، وأما المصاحف العثمانية فإنها مرتبة ترتيباً كاملاً الآيات والسور جميعاً.

4- من حيث التواتر وعدمه، فإنه في عهد النبي ﷺ كان المجموع يضم المتواتر وغيره، بخلاف المجموع في المرتين الأخريين، فإنه مقصور على المتواتر فقط.

5- من حيث النسخ وعدمه، وذلك لأن القرآن الذي كتب في عهد النبي ﷺ يجمع منسوخ التلاوة إلى جانب غير المنسوخ، وأما في الجمعين الأخيرين في عصر الصدّيق وعثمان، فكانوا يقتصرون على غير منسوخ التلاوة.

رد الشبه الوارد حول زيادة القرآن أو نقصانه:-

أورد الملاحدة من المستشرقين والشيعة وغيرهم شبهاً واهية ادعوا فيها أن القرآن يحتمل الزيادة والنقصان، وليس الموجود الآن هو كما أنزله الله، وقد أورد منها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ست شبهات، أكتفي هنا بذكر أهمها وهما اثنتان وأعتقد أن الرد عليهما يدفع الشبه الباقية.

الشبهة الأولى:-

يقولون إن القرآن الموجود الآن ليس هو كل المترل من عند الله تعالى بل نقص منه البعض، واستدلوا على ذلك بما يأتي:-

1- بالحديث الذي رواه الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ سمع رجلاً[1] يقرأ من الليل فقال يرحمه الله: "لقد أذكرني آية كنت أسقطتها وفي رواية كنت نسيتها"[2]، ففي هذا الحديث اعتراف من النبي بأنه أسقط عمداً شيئاً من القرآن أو نسيه.

2- أن بعض الصحابة قد أسقطوا من القرآن ما رأوا المصلحة في إسقاطه مثل آية المتعة التي أسقطها علي بن أبي طالب، وكان يضرب من يقرأها، الأمر الذي جعل السيدة عائشة تشنع عليه وتقول إنه يجلد على القرآن وينهي عنه.

---

1 - وهو عباد بن بشر.

2 - راجع كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن، جـ1، ص256-267.

3- أن أبيّ بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه، ولا يوجد في القرآن اليوم وهو القنوت الذي يقرأ في صلاة الصبح (اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك، إلى آخـــره..).

جواب الشبهة:-

علمنا من تصوير هذه الشبهة أنها مبنية على ثلاثة أدلة ولهذا فنحن نبطلها بإبطال أدلتها، فالدليل الأول: وهو الحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ حين سمع رجلاً يقرأ من الليل يرحمه الله إلى آخره، لا يصح أن يكون دليلاً على دعواهم (وهي سقوط شيء من القرآن)، لأن نسيان النبي ﷺ لبعض الآيات بعد تبليغها[1] لا ينافي المحافظة عليها وبقاءها، لأن هناك عشرات من الصحابة قد حفظوها في صدورهم وكتبوها في مصاحفهم، وقد سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ كان بمجرد أن يترل عليه شيء من القرآن يأمر بكتابته ويتسابق المسلمون إلى حفظه واستظهاره، أضف إلى هذا أن النسيان الواقع من النبي ﷺ لا يعدو أن يكون مجرد انشغال الذهن عن الشيء والسهو عنه بحيث يزول بأدنى تنبيه كما نص عليه العلماء، ويدل على ذلك أيضاً أن عباد بن بشر حين قرأ الآية تذكرها رسول الله ﷺ، أما النسيان بمعنى المحو بالكلية فهو لا يجوز في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وخصوصاً ما كان متعلقاً بما أمروا بتبليغه قبل التبليغ.

أما دليلهم الثاني: وهو ادعاؤهم على ا"لإمام علي أنه أسقط آية المتعة، والثالث وهو قولهم أن أبيّ بن كعب أسقط القنوت المروي عنه، فهما شبهتان مردودتان من أساسهما، وذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم لا يعدون من القرآن إلا ما ثبت تواتره-

1 - لأنه لو لم يبلغها ﷺ لما حفظها الرجل الذي سمعه يقرأ من الليل.

كما تقدم في منهجهم حين جمعوا القرآن- وآية المتعة ومثلها القنوت لم يثبت تواترها على أنها قرآن ولهذا لا تعدان منه.

الشبهة الثانية:-

قالوا إن القرآن، كما احتمل النقصان، كذلك هو يحتمل الزيادة أي أن القرآن الموجود الآن فيه آيات ليست منه في الواقع وإنما ألحقها به بعض الصحابة، ومثلوا لما قالوا بما يلي:-

1- بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ.. ﴾ الآية، ادعوا أنها من كلام أبي بكر قالها بعد وفاة النبي وألحقها الصحابة بالقرآن وليست منه في الواقع.

2- المعوذتان (وهما سورة الفلق وسورة الناس) قالوا: إنهما ليستا من القرآن فقد أنكر قرآنيتهما عبد الله بن مسعود وحكّهما من مصحفه زعماً منه أنهما ليستا من القرآن.

جواب الشبهة:-

هذه الشبهة وهي ادعاؤهم زيادة شيء من القرآن دعوى باطلة لا دليل لهم عليها، وذلك لأن الآية من سورة آل عمران التي ادعوا أنها ليست من القرآن ومثلها المعوذتان ثبتت قرآنيتهما ونقلت عن النبي ﷺ نقلاً متواتراً لا شك فيه، كغيرها من القرآن، وفيما يلي التفصيل:-

أما الآية الأولى: وهو قوله تعالى: ﴿ وما محمد إلا رسول.. ﴾ الآية، فقد ثبت وصح أنها نزلت في حياة النبي ﷺ عقب غزوة أُحد المشهورة عتاباً لصحابة رسول الله ﷺ

على ما صدر منهم، فقد أشيع في ذلك الوقت أن الرسول قد قتل فوقع منهم ما وقع، ثم عرفوا أنه ما زال حياً فانحاز منهم ثلاثون ينافحون عن النبي ﷺ حتى انتصروا، وبعد انتهاء الحرب لام النبي أصحابه على الفرار، فقالوا يا رسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا أتانا الخبر أنك قتلت فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ.. ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾، فهذه الآية ليست من كلام أبي بكر كما يدعي المعترض، وإنما هي من كلام رب العزة حفظها العشرات من الصحابة وكتبوها في صحفهم قبل أن يقولها أبو بكر يوم وفاة الرسول ﷺ، وغاية ما في الأمر أن عمر حين سمعها من أبي بكر في ذلك اليوم خيّل إليه من هول الحادث وشدة الصدمة أن هذه الآية لم تنزل بعد حتى سمعها من أبي بكر ولهذا قال: (ما هو إلا أن سمعت أبا بكر قالها فعقرت[1]، حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله قد مات)[2].

وأما المعوذتان: فما نقل عن ابن مسعود من إنكار قرآنيتهما فهو نقل باطل لا أساس له من الصحة، بل الصحيح المنقول عنه قراءة عاصم عن زرعة وفيها المعوذتان، قال ابن حزم في كتابه القدح المعلى (هذا كذب على ابن مسعود وموضوع)، وقال النووي في المهذب: (أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن فمن جحد شيئاً منهما كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح)[3].

هذا، ولنا أن نقول: إن إنكار ابن مسعود على فرض صحته كان قبل انعقاد الإجماع على قرآنيتهما وعلمه بتواتر نقلهما عن رسول الله ﷺ، فلما علم بذلك كان في

---

[1] – قال أهل العربية: العقر بفتحتين أن تسلم الرجل قوائمه فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش وبابه طرب من المناهل ج1 ، ص279 نقلا عن المختار.

[2] – مناهل العرفان، ج1، ص272.

[3] – المناهل، جـ1، ص268.

مقدمة من آمن أنهما من القرآن بدليل الرواية المذكورة عنه، وهي رواية عاصم عن زرعة كما تقدم.

وأخيراً، فإننا لو سلمنا جدلاً أن هذه الدعوى صحيحة، فإن إنكار ابن مسعود للمعوذتين أو الفاتحة أو حتى لو أنكر القرآن كله لا يضرنا ولا يقدح ذلك في تواتر نقل القرآن، لأنه لم يقل أحد من المسلمين أن التواتر الواجب في نقل القرآن يتحتم أن لا يخالف فيه أحد لأننا لو ادعينا أو اشترطنا ذلك، لم ولن يسلم لنا تواتر أصلاً.

والله أعلم

الأسئلة

س1- ما المقصود من جمع القرآن هل الجمع بمعنى الكتابة أو الحفظ في الصدور؟ ولماذا كان الرسول ﷺ وصحابته يهتمون بحفظ القرآن في صدورهم أولاً وقبل كل شيء؟ وما الغرض من كتابته إضافة إلى الحفظ المذكور؟ وعلى أي شيء كانوا يكتبون القرآن من الأدوات؟

س2- بينّ حال ما كانوا يكتبونه في عهد النبي ﷺ من حيث الترتيب وعدمه، ومن حيث النسخ وعدمه؟ ومن أين عرف المسلمون فيما بعد ترتيب سور القرآن وآياته؟ وهل هو اجتهادي أو توفيقي؟

س3- كم بلغ عدد كتبة الوحي للرسول ﷺ، اذكر أسماء سبعة منهم على الأقل؟ وأين كانوا يضعون الأشياء التي يكتبون عليها القرآن؟

س4- تحدث عن جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق، مبيناً أسبابه ودواعيه، ومن أشار به على الخليفة من الصحابة وسبب الاستشارة؟ وبماذا كان يسمى المكتوب في ذلك العهد؟

س5- كانت للصحابة طريقة خاصة ساروا عليها في الجمع في عهد أبي بكر الصديق، اكتب ما تعرفه عن هذه الطريقة؟ وما هو الصحابي المختار للكتابة ومن هو المختار للإملاء؟ ومن قام بالإشراف على هذه اللجنة؟ وكم المدة التي استغرقها الجمع في ذلك العهد؟

س6- أين وضعت الصحف التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر؟ وما مصيرها؟ وما هي المميزات التي امتازت بها تلك الصحف بالتفصيل؟

س7- جمع القرآن مرة ثالثة في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، اذكر دوافعه والأسباب التي أدت إلى وقوعه؟ وبما سمي المكتوب في ذلك الجمع؟ واذكر أسماء الذين تم اختيارهم للجمع، ومن هو الكاتب ومن المملي عليه وتاريخ وقوع الجمع؟

س8- وضع الخليفة عثمان للجنة النسخ في عهده منهجاً يسيرون عليه في كتابة القرآن، اذكر هذا المنهج؟ وما عدد المصاحف التي تم نسخها وأجمع عليها الصحابة؟ مبيناً ما قام به عثمان من عمل بالنسبة للمصاحف المخالفة لمصاحفه التي أجمع عليها الصحابة؟

س9- هناك اختلاف وفروق بين الجمع في مراته الثلاث المتقدمة، اذكر هذه الفروق من عدة نواح، وصور الشبهتين الواردتين على الجمع؟ وأجب عنهما بما يبطلهما؟

المبحث السادس

سور القرآن وآياته

هذا المبحث من المباحث الجليلة والمهمة في علوم القرآن، لذلك عُنيَ به المفسرون وأولوه اهتمامهم البالغ، وجعلوه في مقدمات تفسيرهم لكتاب الله، وخصوصاً بعدما ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية وهو الاتجاه الذي يجعل من كل سورة من سور القرآن وحدة مستقلة متناسقة الأركان، مترابطة الأجزاء، متعاونة على تحقيق هدف معين وغرض أساسي، أُنزلت من أجله وجاءت لإظهاره والدعوة إليه، وهو مما يمكن اعتباره أساساً لفهم معانيها والاطلاع على أسرارها وبيان حكمها وأحكامها، والذي يعنينا هنا هو: بيان معنى كل من السورة والآية لغة وفي عرف المفسرين، والتماس الحكمة من تسوير القرآن ومن تجزئة السور إلى آيات متعددة، ثم توضيح حكم ترتيب السور في القرآن على ما هو عليه الآن، ومثله حكم ترتيب الآيات في سورها، وهل كل منهما اجتهادي (وقع باجتهاد الصحابة ومن بعدهم)، أو توقيفي جاء بتوقيف وإرشاد من النبي ﷺ.

1- السورة في اللغة

تُطلق السورة لغة ويراد منها معانٍ كثيرة: منها المترلة والشرف، ومنه قول الشاعر النابغة الذبياني[1]:-

ألم تــر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتــذبذب

ومنها ما ارتفع من البناء وحسن، ويقال له: سور بضم السين ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾[2]، التسور الارتفاع من مترلة

[1] - قاله اعتذاراً أو مدحاً للنعمان بن المنذر أحد ملوك العرب في الجاهلية.
[2] - سورة ص ، الآية 21.

إلى مترلة وتسوروا المحراب أي تسلقوه، وسميت السورة بهذا الاسم لشرفها وارتفاع قدرها لاشتمالها على كلام الحكيم الخبير المنطوي على ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، ومنها العلامة لكون السورة من القرآن علامة فاصلة بين كلّ موضوع وآخر، متميزة عن سالفتها ولاحقتها وعلامة ناطقة وشاهدة، بكون القرآن من لدن حكيم خبير، وعلى صدق من أنزل عليه القرآن ﷺ. جاء في القاموس المحيط: (والسورة المترلة من القرآن معروفة لأنها مترلة بعد مترلة مقطوعة عن الأخرى، والشرف وما طال من البناء وحسن والعلامة)[1]، ومن نطق بالسؤرة مهموزة، وقال: سؤرة، فمِن أسأرت أي أبقيت كأن السؤرة بقية من جملة القرآن وقطعة منه، إذ السؤر البقية وفضلة الشيء الباقية بعد الأخذ منه.

وجمع السورة سُوَر بفتح الواو كغرف، وتجمع أيضاً على سور بسكون الواو.

2- السورة في الاصطلاح

وهي قطعة من القرآن الكريم مشتملة على ثلاثة آيات فأكثر، لها مبدأ ونهاية مسماة باسم يخصها[2]، وكون أقصر سورة في القرآن تتكون من ثلاث آيات أمر علم باستقراء آيات القرآن وسوره مع ضميمة شهادة حديث عمر بن الخطاب فيما رواه ابن أبي داوود عن الزبير قال: جاء الحارث بن خزيمة الأنصاري (وهو المسمى في بعض الروايات خزيمة وأبا خزيمة)، بالآيتين من آخر براءة فقال: أشهد أني سمعتها من رسول الله فقال عمر: (وأنا أشهد لقد سمعتها منه، ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعتها سورة على

1- جـ 2، ص55.

2- قال السيوطي في الإتقان: قد ثبتت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، والتحقيق: أن أغلبها بالتوقيف كما ذكر، وبعضها باجتهاد من الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، انظر جـ1، ص150 من الإتقان، ط المكتبة العصرية، بيروت – لبنان.

حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها)[1]. وتقسيم القرآن وتجزئته إلى أجزاء متعددة وتسميتها بالسور من المصطلحات الخاصة بالقرآن، قال تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وقال: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ وهو تقسيم معروف في عهد النبي ﷺ، فقد كان القرآن في ذلك الوقت مقسماً إلى مائة وأربع عشرة سورة، كما هو عليه الآن، و لم يخالف في ذلك أحد سوى ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من عدم اعتباره للمعوذتين (سورة الفلق وسورة الناس) من القرآن وإثبات القنوت الذي يقرأ في صلاة الصبح بدلهما، وجعله سورتي الفيل وقريش سورة واحدة، ولكنه رجع إلى الإجماع أخيراً، كما رجع غيره من المخالفين وأحرقوا مصاحفهم الخاصة كما تقدم في مبحث جمع القرآن.

وأما ما روي عن مجاهد من اعتباره لسورة الأنفال والتوبة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة فهو مردود لورود التسمية لكل منهما باسم خاص بها، وأما عدم الفصل بينهما بالبسملة، فلكونها لم تنزل مع سورة التوبة كما نزلت مع باقي السور[2]، والله أعلم.

3- حكم ترتيب سور القرآن في المصحف العثماني

اختلف العلماء في هذا الترتيب الموجود بين سور القرآن في المصحف العثماني هل هو بتوقيف النبي ﷺ ولا محل للنظر والاجتهاد فيه؟ أم هو وقع باجتهاد الصحابة رضي الله عنهم بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى؟

---

1 - الإتقان، جـ1، ص61.

2 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، جـ1، ص451.

قال بالأول جماعة من العلماء، وقال بالثاني الجمهور منهم، وتوسط آخرون بين هؤلاء وهؤلاء، فقالوا: إن ترتيب أغلب السور توقيفي وترتيب البعض احتهادي ولكل فريق أدلة يتمسك بها، وفي الأسطر التالية بيانها وبيان من قال بكل من هذه الأقوال من الأئمة:-

1- أما الرأي الأول: وهو القائل بالتوقيف في جميع السور، فقال به الإمام أبو جعفر النحاس، والكرماني، وأبو بكر الأنباري.. وغيرهم، بل نسبه بعض العلماء إلى الجمهور أيضاً[1]، واستدل هؤلاء بالأدلة التالية:-

أ – استدل الكرماني في برهانه بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام فقال: (ترتيب السور هكذا هو عند الله وفي اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه، كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرضه عليه في السنة التي توفي بها مرتين)[2].

ب- واستدل أبو جعفر النحاس بالحديث الشريف الذي رواه أحمد وأبو داوود بسندهما عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: (أعطيت السبع الطّوَل مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصّل).

وقال النحاس معقباً على الحديث، وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ وأنه مؤلف من ذلك الوقت[3].

---

1 – هو الأستاذ عبد الفتاح القاضي في مجلة منبر الإسلام، السنة الثالثة، العدد 30، ص51.

2 – من البرهان في علوم القرآن للزركشي، جـ1، ص259.

3 – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، جـ1، ص63، والطول بفتح الواو جمع طولي كالكبر جمع كبرى، وهي: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، واختلف في السابعة فقيل هي الأنفال مع التوبة لعدم الفصل بينهما وقيل يونس، وسميت طوالاً لطولها عما سواها، والمئون هي كل سورة تزيد على المائة آية أو تقاربها وهي إحدى عشرة: براءة وهود ويوسف والنمل والكهف وبني إسرائيل والأنبياء والمؤمنون والشعراء والصافات،

جـ- وقال ابن حجر: ومما يدل على أن ترتيب السور توقيفي ما أخرجه أحمد وأبو داوود عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي، قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف ... الحديث، وقال لنا رسول الله ﷺ (طرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ وقلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وحزب المفصل من قَ حتى نختم).

ثم قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن في المصحف كان على عهد رسول الله ﷺ[1].

د – وقال أبو بكر بن الأنباري مبدياً رأيه: أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة:فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، فمن قدّم سورة أو أخّرها، فقد أفسد نظم القرآن[2].

هذا، ويمكن إضافة الدليلين الآتيين إلى ما قاله هؤلاء الأئمة:-

1- أن ترتيب السور في المصحف العثماني على ما هو عليه لو كان اجتهادياً وخاضعاً للنظر العقلي لظهرت مناسبات خاصة، وتعليلات ظاهرة تقتضيه وتتطلبه، ولكن الواقع خلافه؛ لأننا وجدنا السور لم ترتب حسب الأسبقية الزمنية في النزول، ولم ترتب باعتبار الطول والقصر، فلم تجعل الطول أولاً ثم القصار ولا العكس، كذلك

والمثاني: ما كانت أقل من المائة آية ما عدا المفصل سميت بذلك لأنها ثنت المبئين أي جاءت بعدها، والمفصل لقب لقصار السور التي تبتدئ في أصح الأقوال من سورة ق، أو الحجرات إلى أخر القرآن وهو أقسام: طوال من أوله إلى عم، وأوساط من عم إلى سورة الضحى، ومنها إلى أخر القرآن قصار، أ. هـ من الإتقان للسيوطي، جـ1، ص64.

1 – المرجع السابق، الإتقان جـ1، ص63

2 – الإتقان في علوم القرآن، الإتقان، جـ2، ص62.

لم تجعل المكيات متوالية ثم المدنيات أو العكس، كذلك لم يعتبر في الترتيب المعلوم التناسب والتشابه في الموضوعات التي اشتملت عليها السور، وكذلك لم ينظر فيه إلى فواتح السور ولا خواتيمها، وحيث لم تظهر لنا علة واضحة ولا مناسبة ظاهرة مطردة لهذا الترتيب المجمع عليه من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام حكمنا بأن هذا الترتيب كان بتوقيف وإرشاد من النبي ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى[1]، لحكمة يعلمها عزّ وجل.

2- لو كان الترتيب المعلوم اجتهادياً لتمسك المخالفون له كعبد الله ابن مسعود، وعلي ابن أبي طالب بآرائهم واحتفظوا بمصاحفهم التي كتبوها على خلافه، ولكن الواقع أنهم لم يتمسكوا ورجعوا أخيراً إلى الإجماع وأحرقوا مصاحفهم المخالفة لذلك، فدل عملهم هذا على أن الترتيب توقيفي.

الرأي الثاني في ترتيب السور:-

وأما الرأي الثاني، وهو أن ترتيب السور اجتهادي، فقد قال به الإمام مالك والجمهور، واستدل أصحاب هذا القول بالآتي:-

أ - أن مصاحف بعض الصحابة كانت مختلفة الترتيب قبل أن يجمع القرآن في مصحف، فلو كان توقيفياً لما ساغ لهم أن يهملوه ويتعدوه إلى غيره وهم الوقّافون عند حدود الشرع الممتثلون لأوامره ﷺ، ومن أمثلته ما روي أن مصحف ابن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة، ثم النساء ثم آل عمران، ومثله مصحف أبيّ، ورتب الإمام علي

[1] - هذا منظور فيه للمناسبات والتعليلات العامة الشاملة لترتيب جميع سور القرآن، فلا ينافي أن هناك مناسبات وحكما وأسرارا من أجلها وضعت كل سورة تلو الأخرى، ذكرها العلماء في تفاسيرهم مثل الفخر الرازي والألوسي وغيرهما.

مصحفه على حسب الترول فكان أوله اقرأ ثم المزمل ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي ثم المدني حسب نزوله.

ب - بما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه، قال: قلت لعثمان (رضي الله عنه): ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموهما في السبع الطول؟ فقال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ تترل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ و لم يبينّ لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، و لم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطول، فهذا الحديث يدل في وضوح على أن ترتيب بعض السور كان باجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ويقاس الباقي عليه.

جـ- روى مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ، صلى بالبقرة ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة (قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقع باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف).

مناقشة أدلة القول الثاني:-

هذا، وقد ناقش أدلة هذا القول الشيخ عبد الفتاح القاضي[1]، فقال ما نصه:-

---

1 – في مجلة منبر الإسلام، العدد الثلاثون، للسنة الثالثة، بتاريخ ربيع الأول، سنة 1391 هـ.

1- أما بالنسبة لدليهم الأول المستند إلى ترتيب بعض مصاحف الصحابة الخاصة فهو دليل لا يعتد به ولا يعتبر حجة على ما قالوا، وذلك لأن ترتيبها كان قبل العرضة الأخيرة التي استقر عليها إجماع الصحابة، ولما جاءت هذه العرضة وثبت فيها القرآن إحكاماً وترتيباً رتبت تلك المصاحف على مقتضاها.

ولأن زيد بن ثابت رضي الله عنه – (الذي أسند إليه الخليفة عثمان بن عفان رئاسة الجماعة الذين رتبوا مصاحفه ونسخوها)- كان من كتّاب الوحي وشهد العرضة الأخيرة للقرآن وعلم ترتيب السور من رسول الله ﷺ مباشرة، وليس من المعقول أن يحدث زيد من تلقاء نفسه ترتيباً للسور غير ما تلقاه من الرسول ﷺ، لأن ذلك ليس من عادقم.

2- وأما استدلالهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما فغير مسلم، وذلك لأن الحديث مقدوح فيه من حيث السند ومن حيث المتن، أما السند فقد قال فيه الترمذي: إنه حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي هذا قال فيه العلامة ابن حجر العسقلاني: إن المحدثين اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز المشهور بأنه ثقة أو غيره، ثم قال: والصحيح أنه غيره، وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه، ثم قال: ورجل هذا شأنه مجهول الحال لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ بها ويعتمد عليها في ترتيب القرآن المتواتر، وأما من جهة المتن فمعارض بما ثبت في السنّة من أنه ﷺ كان يتلو القرآن ويعرضه كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة كل عام.

وفي العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين، فأين كان يضع ﷺ هاتين السورتين في قراءته هذه؟ الظاهر أنه كان يضعهما في مكانهما المعلوم المجمع عليه، وإن فات ذلك عثمان رضي الله عنه أو نسيه فلم يذكره في الرواية السالفة على فرض صحتها،

وأما عدم كتابة البسملة بين الأنفال وبراءة، فلأنها لم تنزل في أول التوبة كما نزلت في أول جميع السور عداها، ولولا ذلك لناقشه الصحابة وعارضوه عند كتابة القرآن.

3- وأما الدليل الثالث، فهو أيضاً لا ينهض حجة على مدعاهم لأنه وارد في القراءة، وهي لا يلزم فيها الترتيب وليست موضعاً للخلاف وإنما هو في كتابة المصاحف، ولعل قراءته ﷺ بدون ترتيب، لبيان جواز مخالفة الترتيب في القراءة فقط.

الرأي الثالث:-

وهو القائل بأن الترتيب بين السور اجتهادي في البعض، كالترتيب بين الأنفال والتوبة، وفي الباقي توقيفي وارد في الروايات عن النبي ﷺ: كالسبع الطول، والحواميم[1] والعتاق[2] والمفصل والمعوذتين، والملاحظ أن هذا القول جاء كحل للنزاع بين القولين السالفين وعمل بأدلة كل منهما: وذلك لأن ما احتج به القائلون بالاجتهاد – على فرض تسليمه- لا ينسحب حكمه إلا على بعض السور التي لم يرد في ترتيبها نص يدل على التوقيف في ترتيبها، كالأنفال وأختها.

وقال بهذا القول الإمام ابن عطية والبيهقي في المدخل، ورجحه الإمام السيوطي.

1 - روي أن الحواميم ديباج القرآن، إلى أن قال: هن روضات حسان متجاورات، ذكره القرطبي في التفسير.

2 - العتاق، هي: الإسراء، والكهف، ومريم وطه والأنبياء، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

أرجح هذه الأقوال:-

فيما تقدم علمنا ضعف القول الثاني، (وهو الذي يرى أن الترتيب بين جميع السور اجتهادي)، من ضعف الأحاديث التي استدل بها مع سلامة أدلة القول الأول من النقد، وأما الثالث، فليست له أدلة خاصة، من هنا يمكننا أن نعرف أن القول الأول هو الراجح وهو الذي يرى أن ترتيب السور كترتيب الآيات والحروف كله توقيفي، عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن رب العزة سبحانه وتعالى، هذا وسواء قلنا بالتوقيف أو غيره، فالواجب أن لا نتساهل في كتابة المصاحف ونكتبها على غير الترتيب المعروف المجمع عليه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد علمنا أن أغلبه جاء بتوقيف دون شك أو خلاف، وما بقي داخل تحت الإجماع وهو حجة يجب العمل بها، ولا تجوز مخالفته لرواية تروى.

4- الحكمة في تسوير القرآن

لتجزئة القرآن إلى سور مختلفة طولاً وقصراً، حِكم عديدة وفائدة مهمة وجليلة، ومن بينها ما يلي:-

1- تسهيل حفظ القرآن وتيسير فهمه والتشويق إلى مدارسته والترغيب في الإطلاع عليه، فالقارئ أو الدارس إذا حذق سورة وشرع في أخرى، كان أنشط له وأبعث على التحصيل والفهم والاستزادة.

2- الإرشاد إلى التمييز بين موضوعات القرآن الكريم، إذ أن كل سورة من سوره نزلت لتحقيق غرض خاص وهدف معين، اهتمت به وأولته عناية أكثر من غيره، حتى سميت بعض السور بما تبحث فيه من الموضوعات أو الأشياء كسورة يوسف وسورة القصص ونحوهما.

الفهرس

فهرس المحتويات